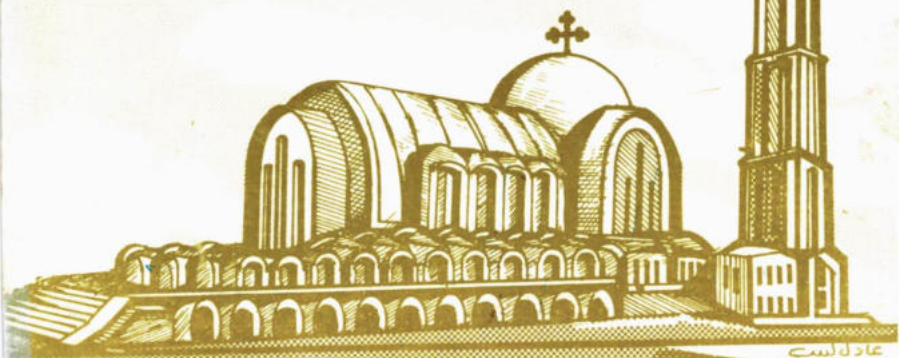


البابا شنودة الثالث

عامة ورجاء
Atef waizel

الليقظة الروحانية



سلسلة
حياة التوبة والتقاوة
REPENTANCE SERIES

اليقظة الروحية

البابا شنودة الثالث

THE SPIRITUAL WAKE

by

H. H. Pope shenouda III

11th Print

الطبعة الحادية عشرة

Dec. 2002

ديسمبر ٢٠٠٢

REPTANCE SERIES
قولنا وانا انا انا
سلسله

تبعها اذفقيا

شالكه اعوش لبالا

THE SPIRITUAL WAKE

٢٧

H. H. Pope Shenouda III

١٩٨٢/٢٥٩٢

١٩٨٢/٢٥٩٢

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢٥٩٢

١٩٨٢/٢٥٩٢

١٩٨٢/٢٥٩٢



قداسة البابا العظيم اللفبا سنوارة الثالث

بسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد أمين

مقدمة

حياة التوبة هي نقطة البدء في العلاقة مع الله .
واليقظة الروحية هي نقطة البدء في حياة التوبة .
وفي هذا الكتاب ، نود أن نحدثك عن اليقظة الروحية .
إنها ست محاضرات ، القيت في الكاتدرائية المرقسية بدير الأنبا
رويس بالقاهرة في إجتماعات الجمعة من مساء ١٦ / ١٠ / ١٩٧٠ إلى
مساء ١٧ / ١١ / ١٩٧٠ . ننشر لك الثلاث الأولى منها .
تشرح كيف أن حياة الخاطيء هي غفوة ، بعيداً عن الله ، لا يحس ما
هو فيه ، ولغفوته هذه أسباب ، ينبغي معرفتها ، لكي نتوقاها ...
فإن استيقظ الخاطيء من غفلته ، ما هي الدوافع التي تدفعه إلى
اليقظة ؟ وما هي المشاعر التي تصاحب اليقظة .
أما كيف يحافظ على هذه اليقظة ، فنتركه لكتابنا (السهر
الروحي) . ونكتفي الآن بأن نستودعك هذه الصفحات .
شكوه الثالث

رسالة في بيان زكيات من كتاب
رسالة في بيان زكيات

فهرست

فهرست

صفحة	
مقدمة ٥
معنى اليقظة ٩
١ - أسباب الغفوة الروحية ١١
٢ - دوافع اليقظة ٣٧
٣ - مشاعر تصاحب اليقظة الروحية ٦٥

.....

.....

.....

.....

معنى اليقظة :

الإنسان الذى يعيش فى الخطية ، بعيداً عن الله ، يشبه الكتاب المقدس بإنسان نائم ، لا يدرى بنفسه ولا بحالته ، كيف هو! فهو محتاج أن يستيقظ . لذلك يقول الرسول « إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم ... » (روم ١٣ : ١١) .

أى أنه كفانا نوماً . كفى الوقت الذى قضيناه متغافلين عن روحياتنا وخلص أنفسنا ، ويجب الآن أن نستيقظ ، الآن بلا تأجيل ولا تأخير . وهكذا يتابع الرسول كلامه فيقول : « إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم ، فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنة . قد تناهى الليل ، وتقارب النهار . فلنخلع أعمال الظلمة ، ونلبس أسلحة النور » .

والكنيسة أيضاً تستخدم معنا نفس التعبير ...

فى نصف الليل ، تضع لنا تسبحة ، تقول فى أولها « قوموا يا بنى النور ، لنسبح رب القوات ، لأنه أنعم علينا بخلص نفوسنا » قوموا ، استيقظوا جسدياً وروحياً ، لكى نسبح ... ولذلك نقول بعد ذلك للرب فى نفس التسبحة « عندما نقف أمامك جسدياً ، انزع من عقولنا نوم الغفلة . أعطنا يارب يقظة ، لكى نفهم كيف نقف أمامك وقت الصلاة ... ونفوز بغفران خطايانا » .

نعم ، إنه نوم الغفلة ، الذى نريد أن نستيقظ منه ...
بل أن القديس بولس لا يعتبره نوماً فقط ، بل ما هو أكثر من هذا .
إنه موت ، لأن الخطية هى موت . والخطاة «أموات بالخطايا» (أف
٥ : ٢) . لذلك يقول الرسول «استيقظ أيها النائم ، وقم من الأموات ،
فيضىء لك المسيح» . (أف : ٥ : ١٤) . قم ، أنتبه لنفسك . ارجع إلى
الصحو ، لتدرى ما أنت فيه . أستيقظ وأترك أعمال الظلمة ، فيضىء لك
المسيح ، وتنتقل من الموت إلى الحياة (١ يوحنا : ٣ : ١٤) .

الشخص الخاطيء كإنسان مخدر ، لا يدرى ما هوفيه ...
أحاسسه الروحية معطل ، فهو لا يحس ما هوفيه ، ولا ماذا يفعل ،
ولا خطورة وجسامته ما يفعله . على رأى المثل «سارقاه السكين» . هوفى
غفلة ، خارج نفسه . ولذلك حسنا قيل عن الإبن الضال ، لما استيقظ
روحياً ، إنه «رجع إلى نفسه» (لو : ١٥ : ١٧) .

الإنسان فى الخطية ، فى دوامة ، ينسى فيها روحه ، وينسى الله ،
وينسى القيم والمثل ، إنه فى غفوة ، لا يشعر بكل هذا . وربما يظن نفسه فى
ملء اليقظة ، ويملاً الدنيا نشاطاً وحركة ! بينما الملائكة تصرخ : ما بال
هذا الإنسان نائماً؟! وإلى متى يستمر فى نومه؟! إنه يحتاج إلى من يوقظه ،
يوقظ ضميره وروحه . يقيمه من بين الأموات ، ليضىء له المسيح ...

حقاً إن الشيطان ، حينما يريد أن يوقع شخصاً ، يخدر ضميره أولاً ، أو
يقوده بطريقة ما إلى حالة الغفوة والغفلة هذه ، التى تعطل الحس

الروحي ، فلا يدرك ما هو فيه .

هنا وأريد أن أقدم لك صورة ، لحالة الخاطيء في غفلته ...

تصوروا كرة تتدحرج من فوق جبل عالٍ ...

كرة القيت من فوق جبل عالٍ ، فأخذت تتدحرج تباعاً ، في إندفاع مستمر من فوق إلى أسفل ، وهي لا تملك ذاتها لتقف وتقول أين أنا ؟ إنما هي تتدحرج وتتدحرج ، بلا فكر ، بلا وعى ، بلا حس ، بلا إرادة ... قوة الدفع تجذبها باستمرار إلى أسفل ، خطوة تسلمها إلى خطوة ، ودحرجة تسلمها إلى دحرجة ، بلا هوادة . وهي لا تعرف إلى أين يقودها كل هذا ... ! ولا تشاء أن تقف ، أو لا تستطيع أن تقف ... ولكن إلى متى ؟

إلى أن يصدمها حجر كبير في إنحدارها . يعترض طريقها و يوقفها ، ويقول لها إلى أين أنتِ ذاهبة ؟ إلى أين تتدحرجين ؟ أفيق إلى نفسك . إستيقظي . هذا الإنحدار المتتابع يقودك إلى الضياع ... !

فتقف . وقد تنظر ، فتجد أنها هبطت كثيراً عن مستواها السابق ... هكذا الخاطيء ، يحتاج إلى أن يستيقظ . وإن لم يستطع ، لا بد من أن يوقظه غيره . اسمعوا ماذا يقول المزمور « أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت ، لأن الرب معي . لا بد من اليقظة ، ومن معونة الله فيها .

وسعيد هو الإنسان ، الذي لا يطول به النوم ...

وكما يقول المرتل في المزمور « أنا استيقظ مبكراً » (مز ٥٧) .

أسباب الغفوة الروحية :

لا شك أن هناك أسباباً ... يلزمنا أن ندرسها ، لكي نخترس منها . فما هي ؟

منها أسباب خارجية ، تتعلق بالمحاربات والعثرات ، والبيئة المحيطة ، والظروف . ومنها أسباب داخلية ، تتعلق بطبيعة الإنسان ذاته ، ونوعية قلبه وفكره . وبعض هذه الأسباب يزحف إلى الإنسان بطيئاً بطيئاً ، بطريقة لا تكاد تُحس . بينما البعض قد يهجم في عنف ، ويحتوى القلب بسرعة ، فينسى كل شيء إلاه ... ولنتناول كل ذلك بشيء من التأمل ونفحصه .

ولعلنا نذكر في مقدمة هذه الأسباب ، المشغوليات .

١ - المشغوليات :

المشغوليات طريقة مأكرة من طرق العدو في تحطيم الحياة الروحية . وأهم ما في مكرها أنها :

لا تحارب الروحانيات ، إنما لا تعطها مجالاً ، فننساها ... !

ومثال ذلك ، قد تجد نوعاً من الناس مشغولاً باستمرار . لا يجد وقتاً يجلس فيه إلى الله ، للصلاة ، للقراءة ، للتأمل ، للتسبيح ، أو لأى عمل

روحى . كما لا يجد وقتاً يجلس فيه إلى نفسه ، ليفحص حالته ، أين هو ، وكيف هو؟ وبالتالي لا يجد وقتاً لتغيير حالته ، فهو لا يدرى ما حالته !

إن الإبن الضال كانت بداية رجوعه ، أنه جلس إلى نفسه ، وفحص الوضع الذى هو فيه ، فقال « كم من أجير عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا هنا أهلك جوعاً » . ولما عرف سوء حالته بهذا الشكل ، إستطاع أن يجد الحل ، وهو « أقوم وأذهب إلى أبى » (لوقا : ١٥ ، ١٧ ، ١٨) .

من حكمة الشيطان ، أنه لا يترك لك وقتاً لروحياتك .

إن الشيطان حكيم فى الشر ، ويدبر خططه بتعقل . وقد قيل عن الحية إنها كانت « أحيل جميع حيوانات البرية » (تك ٣ : ١) ... فما هى الحيلة التى يستخدمها هنا ؟

بالنسبة إلى بعض الناس ، قد يكون الاغراء الواضح بالخطية سلاحاً مكشوفاً لا تقبله ضمائرهم المتيقظة ، إذن لا مانع من ارجائه حالياً ، ريثما يتم تخدير هذه الضمائر . وما العمل إذن ؟

يرى الشيطان أن الناس إذا خلوا إلى أنفسهم ، فن الجائز أن يفكروا فى روحياتهم ، أو يئصبوا إلى صوت الله يدعوهم إليه ، أو أن يرجعوا إلى ضمائرهم فتقودهم إلى الله ...

إذن لا بد من مشغولية ، ولو كانت صالحة فى ذاتها !

مشال ذلك : تلميذ مجتهد ، مشغول فى دراسته وفى مذاكرته طول

الوقت ، لا يبقى له وقت لشيء آخر. فإن تخرج ، تشغله الوظيفة والعمل الإضافي والدراسات انعليا ، ثم بعد ذلك ينشغل في تكوين بيت ، وفي الزواج ، ومشغولية الأسرة والأولاد ، بحيث لا يجد وقتاً للعمل الروحي ... ! وأنت في كل ذلك تعاتبه ، كيف لا يقطع وقتاً لله ؟ وهو يجيب : وماذا عن تفوقى ؟ وعن اخلاصى لدراستى وعملى وأسرتى ؟ وهل الاخلاص للعمل والتفانى فيه يعتبر خطية من الناحية الروحية ؟ والإجابة كلا طبعاً ، إنما الخطأ فى الآتى :

١ - المشغوليات تستوعبك تماماً ، وتأخذ كل وقتك وكل فكرك .

٢ - لا توازن فى توزيع وقتك ، فلا وقت لروحياتك .

٣ - المشغوليات تتلاحق وتتتابع ، بحيث يبدو أنها لا تنتهى .

إذن يجب أن تكون عادلاً فى توزيع وقتك : كما أنك مطالب بالاخلاص لعملك ولأسرتك ، كذلك عليك أن تكون مخلصاً لحياتك الروحية ولعلاقتك بالله ، ولا بد أن تخصص لذلك وقتاً مهما كان الأمر...

عجيبة هى المشغوليات فى عصر التكنولوجيا الذى نعيش فيه ، كل طاقات الإنسان تتحرك بسرعة عجيبة ، كما تتحرك الآلة فى هذا العصر الآلى . الكل يجرى ، وراء عمل ، وراء ترفيهاته ، وراء حياته الأسرية وحياته الخاصة . الكل فى دوامة عجيبة ، لا تعرف السكون ولا الهدوء ، ولا تجد راحة ، ولا وقتاً للروحيات .

حتى إن تفرغ الناس من العمل ، هناك الترفيه والمسليات
تشغلهم .

إن وجد الإنسان فراغاً من الوقت في منزله ، تلاحقه المشغوليات من
الزيارات ، والجيران ، والأحاديث ، وفض المشاكل العائلية ، والمناقشات
الكثيرة فيما يستحق وما لا يستحق ، يضاف إلى هذا الراديو والتليفزيون ،
والجرائد والمجلات ، ومبحث موضوعات التموين والسياسة ، وما لا ينتهي من
أحاديث ...

وإن وجد الشخص فراغاً من الوقت خارج البيت ، فهناك المقهى
والنادى والجمعية ، ولقاء الأصدقاء ، وهناك السهرات والحفلات ،
والرياضة ، والسينما والمسرح ، والمتنزهات والفسح ...

وفي كل ذلك تنسى الحياة الروحية ويُنسى الله أيضاً .
ربما لا يدرك الله على فكرك وقتذاك . فمن أين يأتي ؟ وإن تذكرت الله
وواجباتك الروحية ، تقول « حينما أنتهى مما أنا فيه ، سأجد وقتاً حتماً
لعملى الروحى » . ولكنك بما أن تنتهى مما أنت فيه ، حتى تلاقيك مشغولية
أخرى ، فتتنشغل بها ، وتلفك الدوامة ، وتسحبك بعيداً عن الله ... وإذا
بالكرة ما تزال تتدحرج وتتدحرج ، في إنحدار مستمر ، لا تتوقف ، ولا
تملك ذلك ...

وإن أردت أن تجلس مع نفسك وسط كل ذلك :
قد لا يمنعك الشيطان ، بل يقول لك : « وأنا أيضاً سأجلس معك ،

حتى إن وقفت تصلى سأقف معك أساعدك» . وهكذا يذكرك بعشرات الموضوعات التي يسرح فيها عقلك ، وتعاود التفكير فيها . وتجد أنك لا تصلى ، ولا تجلس مع الله أثناء جلوسك مع نفسك . فازلت في مشغولياتك ! ولماذا ؟

لأن المشغوليات استقرت في عقلك الباطن ، وتعمل فيه .
لم تعد فقط مشغولاً من الناحية العملية ، ومن جهة الوقت ، وإنما من جهة الفكر أيضاً . كل ما يشغلك دخل إلى عقلك ، وإستقر فيه ، واحتل بؤرة اهتمامك . وإن حاولت ، في فترات متقطعة ، أن تخلو إلى ذاتك ، تخرج من عقلك الباطن صور واخبار وموضوعات تشتت ذهنك ، وتجذبك إليها ، فما أسرع أن تنجذب ، وتظل الكرة تتدحرج ... حتى في وحدتك وخلوتك ، يمكن أن يربكك الشيطان ، و يسرح بك في ميادين متنوعة لكي يشتت تفكيرك ، و يدخلك في طياشة الفكر .

عالم مشغول ، وسيظل مشغولاً ، إلى أن تأتي الأبدية .
الكل يدور في دوامته . والشيطان يجهز لكل إنسان الدوامة التي تناسبه ، والتي يتحرك فيها بلا توقف ، و يظل يتحرك ، إلى أن يأتي الموت ، فيسحب منها ، على الرغم من إرادته ... والعجيب أنه ربما يوجد أشخاص في ساعات الموت ، يكونون مشغولين بأمور أخرى بعيدة عن خلاص أنفسهم ! وبخيل إلى أنه حينما تأتي الساعة الأخيرة ، ساعة الأبدية ، و يأتي السيد المسيح في مجيئه الثاني ، و يوق الملائكة بالبوق ، يكون الناس لا يزالون منهمكين في مشغولياتهم ، متعلقين بها ، لا يحاولون الفكاك منها ، ولا

يريدون...! عجيب أن يظل الناس في مشغولياتهم ، حتى إن أتاها الموت
يجدهم مشغولين لا يخرجون من دواماتهم !!

كل منهم ، يحب دوامته التي يحركها ، أو التي تحركه !
عالم مشغول . متى تراه سيفرغ من هذه المشغولية ، ويعطى ولو جزءاً
من وقته لله ؟ متى ؟ متى يحصل على فترة هدوء أو سكون ، يقضيها في
التأمل ، لأجل راحته النفسية وراحته الروحية ؟

متى نخرج من المشغوليات ، ونعطى وقتاً لله ؟!

متى يستريح اللسان من الكلام ؟ ومتى تستريح القدمان من
الجرى ، واليدين من الشغل ، و يتفرغ الإنسان إلى الله ، ويهدأ ويجد وقتاً
لروحه ... ؟ متى يعتبر الوقت الذي يقضيه مع الرب ريحاً له ، ومرتعة لنفسه ،
وليس اقتطاعاً من أمور العالم التي يجبها . إن الله انقاداً للناس من
مشغولياتهم ، قال لهم : إنني أريد أن أريحكم . ولكنكم لا تريدون أن
تريحوا أنفسكم ، لأنكم دائماً في مشغولية . ماذا أفعل إذن من أجلكم ؟

أعطيكُم يوماً في الأسبوع ، تنحرون فيه من مشغولياتكم .

يكون يوماً مقدساً لي « عملاً من الأعمال لا تعملون فيه » (لا
٣: ٢٣) . إنه يوم لأرواحكم . حتى إن غفوتم طوال الأسبوع ، تستيقظون
فيه . ولكن هل استجاب الناس لبركة يوم الرب ؟! إنهم مازالوا مشغولين
في يوم الرب أيضاً . الأعمال الخاصة التي لم يستطيعوا أن ينجزوها في أيام
العمل الرسمي ، يعملونها في يوم الرب . وإن إستطاعوا أن يتفرغوا ،

يقضون هذا اليوم في ملاهيهم ومتعهم . وبدلاً من أن يسموه اليوم المقدس holiday يسمونه Week - end أى نهاية الأسبوع . وقد تكون مشغوليّاته وعشراتة أكثر من باقى أيام الأسبوع . وتستمر الكرة تتدحرج فيه ، ولا يكون مجال للروح !

الله يريد أن يقضى وقتاً معنا ، ونحن لا نريد !
كإنسان خطب فتاة . وكلما يزورها لكى يقضى معها وقتاً ، من فرط محبته لها ، يجدها مشغولة في ترتيب أمور البيت ، في الكنس والمسح ، وغسل الملابس وكها ، وأمور الطهى والتنظيف ... ويحاول جاهداً أن يقنع خطيبته بأن تجد وقتاً تجلس معه ، ولا فائدة ، إنها مشغولة باستمرار !! هل تظنون مثل هذه الخطيبة تستحق عريسها الذى يحبها ؟ أليس من الحكمة أن تغير أسلوبها ... ؟

ماذا يفعل هذا الخطيب ، إن كان في كل مرة يأتي إلى خطيبته ، يجدها مشغولة عنه لا تلتفت إليه .

عجيب أن الله يريدنا ، ونحن لا نريده ، عجيب أن ننشغل عن أخلص حبيب . يكلمنا ، ونحن لا نجيب . يدعونا إليه ، فلا نستجيب عجيب هذا حقاً عجيب ...

شاب يسأل : أنا مشغول في دروسى ، فهل أترك الخدمة؟! ... كيف تترك الخدمة يا ابنى ؟ أليس هناك يوم في الأسبوع هو يوم الرب ، تخدم فيه ؟ أنت لا تملك هذا اليوم ، حتى تشغله بالدروس أو غيرها . إنه ملك

للرب . سمح الله أن كل دول العالم ، وكل الإدارات والمصالح
والمؤسسات ، تمنح العاملين فيها يوم عطلة في الأسبوع . إنه يوم الرب . لا
يجوز أن ننشغل فيه بغير الرب . وإلا كانت هذه المشغولية تحمل اعترافاً
ضمنياً ، بأن الله ليست له أهمية في قلبك وفي تقييمك لمشغولياتك !

وعجيب أننا ننشغل عن الرب ، ونلوم المنشغلين به !
مشال مرثا أخت مريم ، إنشغلت عن السيد المسيح بأعمال البيت
وأمرور الضيافة . ولم تكتف بهذا ، إنما بكل تأثر وجهت لومها إلى مريم ،
لأنها جلست عند قدمي الرب تستمع إليه ! وكأنها تقول عن أختها . لماذا
تجلس في هدوء ؟ لا تنشغل مثلي ومعى ؟ هل جلوسها مع الرب أهم من
عملها معى . لذلك وبخها السيد المسيح على مشغوليتها هذه ، وقال لها :
أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ، والحاجة إلى واحد (لو ١٠ :
٤٠ ، ٤١) . وأصبحت مرثا مثالاً للمشغولية التي تعطل عن الجلوس مع
الرب .

ومشال هذا أيضاً الذين تجرفهم أمور العالم ، حتى ما يجدون وقتاً
للصلاة . فإن وجدوا راهباً متوحداً قد تفرغ للجلوس مع الرب ، في صلاة
وتأمل ، يصيحون قائلين : فلينزل ليخدم معنا ! و يتهمون الرهبان بحياة
الكسل ، وعدم الاهتمام بالكنيسة ، وعدم المبالاة بخلاص الأنفس
المحتاجة !!

إنهم لا يجدون وقتاً للصلاة ، و يلومون الذين يصلون . و يصيحون فيهم

كما صاح فرعون في الشعب الذى أراد أن يخرج ليعبد الله « متكاسلون أنتم متكاسلون ، لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب » (خره : ١٧) .

المشغولية عن الرب زحفت ، حتى دخلت مجال الخدمة أيضاً !
فترى مثلاً خادماً كبيراً ، مسئولاً عن فرع هام من فروع الخدمة ، ومع ذلك لا يجد وقتاً للصلاة والتأمل والجلوس مع الله . فتلومه على ذلك . ولكنه يصيح : العلك لا تعرف مدى المسئولية الملقاه علىّ ، ومدى المشغولية التى أنا فيها : أمامى كراسات التحضير ، وفصول أعداد الخدام ، والمكتبة ، والنادى ، والصور ، ووسائل الإيضاح ، وتنظيم الأنشطة المتعددة والافتقار ، واجتماع الشبان ، ومشكلة المتكلمين ... من أين أجد وقتاً للصلاة؟! اعذرنى ...

وهذا تحف روح الخادم ، بينما يظن أنه فى عمق الخدمة !
وتصبح الخدمة لوناً من النشاط ، خالية من الروح ، كل تنظيماتها تدخل فى حدود الأوامر والنواهي . وتصبح الكلمات التى تلقى عن الصلاة والتأمل والعمل الروحى ، مجرد كلمات من الكتب ، بلا خبرة روحية ، وبلا ممارسة ، وبدون تذوق لله نفسه .

وقد ينطوى تحت هذا المثل أيضاً كثير من العاملين بنشاط كبير فى المجال الدينى ! حتى أن الله يبحث عنم بقى له ، إن كان الكل ، داخل بيته وخارجه ، منشغلين عنه؟! !

هنا وأتذكر بعض أبيات شعرية ، قلتها فى هذا المجال :

دخلت البيت لا مرثا	بساحته ولا مريم
فن للرب في البيت	وكيف إذا أتى يُخدم؟
ومن يهفو لمقدمه	ومن يجرى ومن يبسم؟
ومن يرنو لطلعته	ومن يصغى ومن يفهم؟
ومن بكلامه يشدو	طوال الليل أو يحلم؟

إنها حقاً مأساة ، أن العالم كله منشغل عن الله ... حتى بعض الذين كرسوا أنفسهم له ! ... بالكاد يجاهد الناس لكي يحصلوا على وقت يقضونه معه ! وأي وقت ؟! وقت تتنازعه أفكار العالم واهتماماته .

لذلك جميلة جداً هي صلاة نصف الليل ، التي يصلها الآباء الرهبان في الأديرة ، لو أمكن أن يصلها أعباء الله في المدينة ... يرفع الإنسان يديه إلى السماء ، ويقول للرب : هوذا الكل نائم ، والجوساكن ، يمكنني يارب أن أنفرد بك ، في هدوء هذا الليل ، وبدون عائق من أحد ، قبل أن يصحو الناس ، وتعود الضوضاء إلى المدينة ، ويعود الصباح والضجيج . أنا هنا أخلو بك ، وأفتح لك قلبي ... كما قال المزمور « في الليالي إرفعوا أيديكم أيها القديسون ، وباركوا الرب » .

حسن أن يفعل أحد هكذا ، ولكن في الواقع نادراً ما نجد ... تسأل زميلاً لك « هل تصلى صلاة باكر؟ » فيقول لك : ما أن استيقظ حتى أستعد بسرعة للذهاب إلى العمل ، قبل زحمة المواصلات ... ! وتسأله عن صلاة النوم ، فيقول لك : أرجع إلى بيتي متأخراً ، متعب الجسد جداً ، التي

بجسمى على فراشى لأنام !

والله ؟ هل هو فى آخر القائمة بالنسبة إلى اهتماماتك ؟
لا شك أن الموضوع يحتاج إلى تنظيم الوقت ، وتوفير الوقت .

حاول أن تصحو مبكراً بعض الشيء ، ولو نصف ساعة ، لكى تبدأ اليوم بالصلاة وقراءة الكتاب . ولا مانع من أن تنام مبكراً أيضاً . وتحتاج أيضاً أن توفر وقتاً من المشغوليات التى يمكن الإستغناء عنها أو عن بعضها خلال النهار... يمكن تقليل بعض الوقت الذى تعطيه للجراند والمجلات والإذاعة ، مع ما تغرسه فيك كل هذه من أفكار ، أو ما يتبعها من أحاديث ... يمكن أن تختصر بعض اللقاءات والزيارات ، وتلغى المقابلات والجلسات غير البناءة ، وتعيد النظر فى الوقت الذى تعطيه للترفيهات والمسليات . ولا شك أنك ستستطيع أن تجد وقتاً لروحياتك .

المهم أن تفتنع بأهمية العمل الروحى . وحينئذ ستجد وقتاً .
انزع نفسك من الكلام الكثير مع الناس ، لكى تتكلم ولو قليلاً مع الله ... الذى ينتظرك .

إن أية مشكلة طارئة مفاجئة تقابلك ، لا بد ستفرغ لها وقتاً للتصرف فيها ، مع أنك ما كنت تعمل لها حساباً ، وما كانت تخطر على بالك ، ذلك لشعورك بأهمية الأمر . كذلك إن شعرت بأهمية خلاص نفسك ، وأهمية علاقتك بالله ، لا بد ستنظم وقتك ، لكى تحتفظ بالتوازن بين عملك فى العالم وعمل الروح . وهذا التوازن لازم جداً ، حتى لا يطغى العالم على روحياتك .

نظم وقتك ومشغولياتك ، حتى لا تسحبك الدوامة بعيداً ...
 ولا تعتذر بالمشغوليات ، فإن داود النبي ، على الرغم من كل
 مشغوليته كملك وقائد وقاض ، كان يقول « سبع مرات في النهار سبحتك
 على أحكام عدلك » . وكان يقضى الليل مع الله (مز ١١٨) . لم يعتذر
 داود بالمشغوليات ، بل على الرغم من كثرتها ، أستطاع أن يجد وقتاً طويلاً
 ودسماً للمزممار وللقيثار وللتسبيح والترتيل . ويشوع بن نون خليفة
 موسى ، على الرغم من مسؤولياته الكاملة عن الشعب بأسره ، قال له الله
 « لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك ، بل تلهج فيه النهار والليل » (يش
 ٨:١) .

فهل أنت في مثل مشغولية داود الملك و يشوع القائد اللذين وجدا وقتاً
 لله ... ؟!

تحدثنا عن المشغوليات التي تسحب الناس بعيداً عن الله ، فهل يوجد
 غيرها مثلها ؟ نعم توجد :

العاطفة المسيطرة :

إن كانت المشغوليات تملك الوقت ، ولا تعطى فرصة لله ...
 فالعاطفة تملك القلب والفكر أيضاً ، بعيداً عن الله ...
 الشيطان لا يكشف أوراقه على الدوام ، فهو لا يمنع الإنسان صراحة
 من الوجود مع الله ، إنما قد يقدم له عاطفة ما تشغل كل قلبه وفكره
 وأحاسيسه ومشاعره ، وتخدره تماماً ، وتستحوذ على كل اهتماماته ، ومعها

لا يكون لله مجالاً في داخله . ومع هذه العاطفة تظل الكرة تتدحرج وتتدحرج ، وهي لا تدرى ما هي فيه ، أو إلى أين هي سالكة ...

تماماً كما يكون معنا طفل ، نخشى أن يعطلنا بصراخه وضجيجه وكلامه ، فنقدم له لعبة يلهو بها ، فينشغل بها عنا ويهدأ ... كذلك يقدم الشيطان مثل هذه العاطفة كلعبة يلهو بها القلب بعيداً عن العمل الروحي ... و يبحث الله عنك فلا يجدك ، و يناديك فلا تسمعه ، لأنك مشغول أو مخدر بهذه العاطفة التي تسربت إلى قلبك .

إنها محبة معينة ، من أى نوع كانت ...

لا يشترط أن تكون محبة من النوع الذى بين فتى وفتاه ، أو تعلق قلب بقلب ، إنما هي عاطفة من أى نوع ، والمهم أنها تملك المشاعر كلها وتوجهها في مسارها .

مثل هواية معينة تسيطر على الإنسان ، وتملك كل وقته واهتمامه ... هواية كالكرة ، أو العوم ، أو التجديف أو السباق ، أو كالرسم ، أو الكتابة ، أو التمثيل ، أو أى فن من الفنون ... أو محبة للعبة من اللعب ، أو تسلية من التسلية ، أو قراءة خاصة في الفلسفة أو علم النفس مثلاً ... أو قد تكون هذه المحبة محبة الإنسان لعمله ، تحولت إلى هواية تملك كل وقته وكل فكره . لا يتحدث مع أحد ، حتى في بيته ، إلا عن هذا العمل وأخباره وتفصيله ومدى نجاحه أو المشاكل التي تعترضه . هو عنده كل شىء ...

أو قد تكون محبة للشهرة أو للظهور أو للعظمة ، تجعله حتى في وقت فراغه يسبح في أحلام اليقظة ، أو يؤلف حول نفسه قصصاً خيالية يعيش فيها ، و يترجم رغباته إلى حكايات وتصورات ...

أو قد تكون هذه العاطفة التي تشغله هي ثورة لتغيير الأوضاع ، أو ما يسميه برغبة في الإصلاح ، حسب مفهومه الخاص طبعاً ، تجعله ينتقد كل شيء ، و يغضب ، و يدين ، و يقترح اقتراحات جديدة ، و يتصور أوضاعاً جديدة للجو الذي يريد أن يصلحه ، و يقضى الوقت اقناعاً لغيره بوجهة نظره .

أو قد تكون هذه المحبة إثناء لجمعية أو هيئة معينة ، أو فكر ما ... المهم أن تياراً جارفاً يكتسح قلبه و يوجهه في حماس وفي نار داخلية تتقد ، وتظل الكرة تتدحرج في عنف ، وهو يعلم بذلك ، بل و يسر به ، لأن محبة هذه الدرجة قد دخلت قلبه وملكته عليه .

و يبحث الله عن مكان في قلبه ، فلا يجد ...

قلبة مشغول ، على الدوام ، بهذه العاطفة التي استولت عليه ، والتي يصحو ويبسبب مفكراً فيها ، والتي التهمت كل محبة أخرى ، تجدها في طريقها ، حتى محبة الله ... إنها كالعشاء (العتة) التي تلتهم الملابس ، أو كالسوس الذي يأكل الحبوب ، أو كسرطان الدم الذي يأكل الكرات الحمراء ... تظل تلتهم كل شيء ، حتى تبقى وحدها . و يشعر هذا الإنسان أن هذه العاطفة هي الوحيدة التي تشبعه ! و تسأل عن مركز الله في قلبه ،

أو مركز الروح أو الأبدية ، فلا تجد إلا هذه الحقيقة المرة :
لقد طردنا صاحب البيت ، وأسكننا في مكانه الغرباء ... !

الله ، الذى هو المالك الحقيقى لقلبك ، أصبح لا يجد له مكاناً فيه .
إنشغل القلب تماماً بعاطفة غريبة ، خدرت كل عواطفه الروحية ،
فنامت وغرقت في النوم ... والعجيب أنه ليس من السهل أن توقظ مثل
هذا الإنسان ، لأنه سعيد بنومه . اليقظة قد تتعبه ، لأنها تحرمه من
(محبته) !!

لذلك ما أجل حياة الرهبان القديسين ، الذين قطعوا من قلوبهم كل
محبة أخرى غير الله ، وجعلوا شعارهم :
الإخلال من الكل ، للإرتباط بالواحد (الذى هو الله) .

هؤلاء أحبوا الله ، أكثر من كل محبة أخرى مهما كانت بريئة ، احبوه
أكثر من الأب والأم والأهل والأقارب ، بل حتى أكثر من أنفسهم ،
حسب الوصية الإلهية . (مت ١٠ : ٢٧ - ٣٩) . وكأن كل واحد منهم
يقول لله : لا أريد محبة أخرى تشغلنى عن التفرغ لك . فليس لى سواك .
أنت الذى تشغل فكرى وقلبي ، وتشغل حياتى ووقتى ، وتشغل حواسى
وعواطفى . أنت شغلى الشاغل . قلبى ملآن بك ، وفرحان بك ، ولا يعوزه
أحد غيرك . لا يوجد فيه فراغ يتسع لأحد غيرك .

هذه مشاعر القديسين سكان البرارى . ولكن الكل ليسوا هكذا .
دوامة العالم تجذبهم ، وتلفهم داخلها . حتى إن جلسوا مع الله ، لا يكون

ذلك بكل قلوبهم ، لأن عواطف أخرى كثيرة تنافس الله في القلب ...
ولكن هل العواطف والمشغوليات هي الوحيدة التي تخدر الإنسان ،
وتجذبه بعيداً عن الله ؟ كلا ، فهناك أيضاً البيئة .

البيئة المنحرفة :

طبعاً ، ليست كل بيئة تبعد الإنسان عن الله ، فهناك بيئات مقدسة
لها تأثير روحي إيجابي . ولكننا هنا نتكلم عن البيئات غير الروحية ، التي
لم تذق في حياتها ما أطيب الرب ! البيئات المعطلة ...

مسكين الإنسان الذي كلما يسير في طريق الله ، أو كلما يستيقظ
لنفسه ، تحاول البيئة بكل جهدها أن ترجعه ، فينام مثلها ، يحيا نفس
حياتها البعيدة عن الله ... ناسياً قول الكتاب « لا تشاكلوا هذا الدهر »
(رومو : ١٢ : ٢) أى لا تكونوا مثله ، على شبهه وشكله .

البيئة المنحرفة تتهم المتدين بالتطرف . وتعتبر جهاده تزمناً ،
وروحياته شذوذاً ... !

هى تريد مثلها ، يحيا كالمجتمع الذى يعيش فيه ، بنفس الأخطاء ،
لا يشذ عن الباقين ... إن كثر تردده على الكنيسة ، يقولون له : كفى تطرفاً ،
التفت إلى دروسك أو إلى عملك ... وإن صام ، يقولون له : ستضيع
صحتك ، وتفقد نصارتك . أنظر كيف ذبلت ! لو سرت هكذا ، ستصاب
بالأنيميا والسل ! إن عامل الناس بإتضاع ووداعة ، يتهمون به بضعف

الشخصية . وإن رفض لهوهم وعبثهم ومزاحهم الردىء وترفيهاهم الخاطئة ، يصفونه بالرجعية ! وإن سلكت الفتاة فى حشمة ، يقولون لها : منظرک أصبح كفلاحة ! من يرضى أن يتزوجک وأنت هكذا؟! إنک رجعية لا تجارين العصر ، قد عقدک التدين !

کلا ، إن الإنسان المتدين ليس رجعياً ، إنما هو يقبل من العصر ما يناسب مبادئه ومثالياته ، و يترك ما يبعده عن الله . والمدنية ليس معناها التخلی عن القيم الروحية . وليس التمسك بالمثاليات لوناً من الرجعية . إنما هذا الإتهام هو نوع من الإثارة ، يقصد بها الناقدون أن يسمعه الضعيف فيترزع .

إن الشخص القوى لا تجرفه البيئة المنحرفة ، بل يصمد ويقاومها .

أما الضعيف ، فرما يساير الجو . إن سمكة صغيرة يمكنها أن تقاوم التيار لأن فيها حياة . بينما جذع شجرة ضخمة يجرفه التيار على الرغم من ضخامته ، لأنه ليس حياً . فكونوا أحياء وقاوموا البيئة إذا انحرفت ، ولا تستسلموا لكل جديد إن كان ضد روحياتكم ومثالياتكم .

حقاً ما أخطر البيئة على الإنسان الضعيف . كلما تشتعل فيه محبة الله ، ترجع البيئة فتطفئها . كما تضعفه القدوة السيئة .

وهكذا يتصرف كالباقين ، يلهو معهم و يعبث ، ويشترك فى احاديثهم الخاطئة ، ويلبس شخصيتهم . وكما يقول المثل « أرضهم

مادمت في أرضهم ، ودارهم مادمت في دارهم . « أو على الأقل إن استطاع أن يقاوم ، لا يضمن الاستمرار في المقاومة . وبمرور الوقت يفقد حرارته الروحية ، ويحيا في فتور دائم ، يتحول بالتدرج إلى غفوة روحية . لأنه لا يوجد صوت يبكته على الخطية والفتور، بل على العكس يوجد من يبكته على العمل الروحي !

كشاب كلما يحاول أن يستيقظ إلى نفسه ، يمر عليه صديق يضع كل ما عنده من روحيات ، وينتقل بأحاديثه وبدعوته الملحة إلى جو آخر، ثم يخرج مع من منزله ، ويقوده إلى ما كان يحاول الابتعاد عنه منذ حين . « والشئ الذي ليس يريد ، أياه يفعل » (رو ٧: ١٩) . وعلى رأى الشاعر:

متى يبلغ البنان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
بضاف إلى الإغراء ، والضغط المعنوي ، والجذب المستمر ، ومحاولات الإقناع .

الفكر أيضاً يعمل ، عملاً مضاداً للروح . البيئة تحاول أن تقنع هذا المتدين بخطأ مسلكه ، بوسائل متعددة من التشكيك ، وبسرد قصص وأخبار لا تنتهى . وربما تلجأ إلى تفسير خاطيء لآيات الكتاب ، كما حاول الشيطان في التجربة على الجبل . ولا أريد هنا أن أسرد أمثلة من التشكيك وهي كثيرة... !

مثل هذا الإنسان ، يجب أن يهرب من تأثير البيئة .

يهرب منها فكرياً ، بأن يعرف الرد على شكوكهم ، بالإتصال
بشخصيات روحية قوية ، تعطيه رداً على كل فكر خاطيء ، وكل مبدأ
غير سليم ، وكل تفسير منحرف لآيات الكتاب ... وهرب من تأثيرهم
بكافة الطرق ، حتى بالنسبة للأسرة ، كأن ينشغل في عمله خارج البيت ،
مع باقى أنشطته ، أو أن ينشغل في البيت في مذكرات إن كان طالباً .
ويجب أن يخفى ممارساته الروحية عنهم على قدر الإمكان ، كما قيل في سفر
النشيد « أختي العروس جنة مغلقة ، عين مقفلة ، ينبوع محتوم » (نش : ٤ :
١٢) . وأيضاً لا يكشف أمانية الروحية . ويحيا في البيئة كأنه ليس منها .
ويشترك أحياناً معهم فيما لا يُتعب ، ويعتذر عن الباقي في لباقة وحكمة ،
أو في هروب . كما ينبغي أن يكون قوى الشخصية ...

أما الذين يستسلمون لتأثيرات البيئة الخاطئة ، فإنها تلتفهم .
تقتل فيهم كل رغبة روحية ، وتفقدهم روح اليقظة . وإن استيقظوا
يعذبون أنفسهم يوماً بيوم ، كما كان لوط في أرض سادوم ... لما كلمهم عن
خلاص نفوسهم « كان كمازح وسط أصهاره » (تك : ١٩ : ١٤) . ما
أعمق قول الكتاب إن « المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة »
(١ كو ١٥ : ٣٣) .

لابد إذن أن يغير بيئته ، أو يهرب من تأثيرها . أو أن يكون قوياً
بالدرجة التي يستطيع هوفها أن يؤثر في البيئة . ولكننا لا نتكلم هنا عن
الأقوياء ، إننا نتكلم عن الذين يحتاجون إلى يقظة روحية ، الذين جذبتهم
الدوامة ، وجعلت الكرة تتدحرج إلى أسفل . يجب أن يهرب هؤلاء
لأنفسهم ...

كمثال نصيحة طبيب لمرضى ...

يقول الطبيب للمريض : يجب أن تغير أسلوبك في حياتك : لا تأكل كذا وكذا من الأطعمة ، فإنها ضارة بصحتك . تخلص من السمنة مثلاً . لا تجلس كثيراً بل أمش فإن المشى مفيد لك . لا تجلس في مكان غير متجدد الهواء ... إلخ . ويجب على المريض أن يمتنع عما يمنعه عنه الطبيب ... ليشفى ...

اصحوا إذن لأنفسكم . تخلصوا من مشغولياتكم وعواطفكم وبيئاتكم .

تخلصوا من كل ما يخدر ضمائركم ، كما تتخلصون من المشغوليات والعواطف المسيطرة ، وأيضاً من تأثير العقل المنحرف ، الذي تقوده رغبات خاطئة أو أفكار غير سليمة ...

العقل :

أحياناً يكون العقل سبباً في ضياع الإنسان روحياً ، إذا ما أساء استعماله لتحقيق شهواته

فكثيراً ما يكون العقل ، جهازاً تنفيذياً لرغبات النفس !
فإذا انحرفت النفس ، ما أسهل أن تجذب العقل خلفها ، كخادم مطيع لها يبررها سلوكها الخاطيء .

تشتهى النفس شهوة منحرفة ، أو تود أن تستريح بعيداً عن تعب الجهاد الروحي . وهنا تجد العقل يضع ذاته في خدمة هذه النفس ، يقدم لها ما

تشاءه من التبريرات ... أدلة وبراهين ، بل وآيات من الكتاب ،
ومقتبسات من أقوال الآباء ! حتى تستريح النفس إلى ما هي فيه ، وحتى
لا يثور الضمير على خطأ يجب أن تبعد عنه !

مثل هذا العقل ليس أداة في يد الروح القدس .
قد يكون العقل أداة في قبضة العالم أو الشيطان . وقد يكون واقعاً
تحت تأثير الآخرين ، أو تحت نير الشهوة ، أو قد يدفعه الفهم الخاطيء ، أو
المجاملة ، أو المنفعة المادية ...

مشال ذلك عقل ايزابل في خدمة آخاب ، لما أراد هذا أن يستولى على
حقل نابوت اليزرعيلي (١ مل ٢١) . أو العقل الذى دفع التلميذين إلى
طلب نار من السماء لحرق إحدى مدن السامرة (لو ٩ : ٥٤) . أو عقل
بطرس الذى دفعه إلى قطع اذن العبد ، بدافع من الغيرة المقدسة ! ولعل
من أوضح الأمثلة لهذا أيضاً ، عقل صاحب الوزنة الواحدة الذى برردفنه
لوزنته بدليل منطقي (مت ٢٥ : ٢٤) . العقل دفع آدم في خوفه إلى
الإختباء من الله . ولكن الروح لا تفعل هكذا ...

العقل قد يقود إلى الخطأ ، ويقدم لذلك اعداراً .
ربما يحاول الضمير أن يوقظ الإنسان ، فإذا بالعقل ينيمه ، و يقدم له
عذاراً عن كل خطأ :

هذا الأمر ما كنت أقصده مطلقاً ، أتى عفواً ، والنية غير متوفرة فيه .
وهذه الخطية حدثت على الرغم منى . الضغوطات الخارجية كانت شديدة

جداً ، لا يستطيع أحد الفكاك منها ، ويمكن أن تدخل هذه ضمن الأعمال غير الإرادية ! وهذا الخطأ تبرره الظروف ، وذلك تشفع فيه الغاية الحميدة والقصد السليم . وذلك الموضوع طبعى جداً ، يحدث لكل أحد ، لماذا ندع الضمير يوبخنا عليه؟! ولا شك أن التدقيق الزائد في الحكم على أمثال هذا الأمر غير جائز، إنه يقودنا إلى الوسوسة ويفقدنا بساطتنا!! ... وهكذا إلى ما لا ينتهى من التبريرات .

ما أسهل أن ينخرف العقل ، وينحاز إلى ذاته ، ويشحذ كل طاقته لمنح سلام زائف للنفس ! والفضيلة التي تقصر فيها ، ما أبسط أن يقول إنها فوق إمكانياتي ، أو الظروف لم تساعد عليها ... !

إنه العقل الذى يشارك النفس فى إنحرافاتهما ، ويساعدها . إنه مجرد جهاز يستخدمه الإنسان . وقد يكون جهازاً للبخر أو للشرب ، حسبما يوجهه صاحبه . وقد يكون العقل مشحوناً بأفكار تقدمها البيئة أو التقاليد ، أو بأفكار استقاها من الكتب أو من الأصدقاء . فلا نضمن كل ما فيه من الفكر . وهذا يكون العقل سبباً لضلالة الإنسان ، إن كان يساعده على الخطيئة ، أو يبررها له ، أو يخدره بما يقدمه من أعذار .

وخيال العقل الخصب قد يساعد على سقوط النفس ...
تشتهى النفس شهوة ، فيتناولها العقل ، و يقدم لها قصصاً لا تنتهى تدور حول صور لتحقيق هذه الشهوة ... مئات من القصص تطول وتستمر . وما أن تنتهى صورة منها ، حتى يقدم صورة أخرى ، فى خصوبة عجيبة .

والنفس نائمة ، تسرح فيما يقدمه العقل من حكايات تشبع شهواتها ... إلى أن يستيقظ الإنسان أخيراً ، فيجد أن العقل قد سرح به في مجالات لا تنتهى . وقد يشتهى أن يعود فيغفو ، ليسرح به العقل مرة أخرى ، ومرات ...

وما أعجب سرحات العقل التى يقدمها فى أحلام اليقظة !
فى خطية المجد الباطل مثلاً ، ما أسهل أن يؤلف العقل روايات طويلة ، عن أمجاد يصل إليها الإنسان ويرفعه بها إلى أعلى مستوى ، فوق الخيال ، إلى أمور من المستحيل فى الواقع أن تتحقق . ولكن العقل يقدمها فى سرحاته العجيبة ، ليشبع رغبة النفس فى العظمة . وتظل النفس مخدرة مع العقل ، سارحة فى خياله ، إلى أن يوقفها طارق أو طارىء فتستيقظ ، وتساءل أين أنا ؟ وقد تستمر دغدغة هذه الأحلام معها ساعات أو أيام أو سنوات ! وقد يقضى الإنسان عمره كله يحلم ويفكر ، ويسعد بأوهامه .

ليست مشكلته أنه لا يستطيع أن يستيقظ من أحلامه ...

بل مشكلته أنه لا يريد أن يستيقظ !!

إنه سعيد بأفكاره ، سعيد بأحلامه وأوهامه ، سعيد باشباع العقل لشهواته ! وما أكثر مواهب العقل فى التأليف والتخطيط ورواية القصص والحكايات ! وإن أرادت الروح أن تتدخل لاقناع الإنسان بأخطائه ، يحاول أن يرد بمجادلات عقلية ... ! إنها مشكلة العقلانيين ...

تحدثنا الآن عما يخدر الإنسان من مشغوليات ، وعواطف ، ومن انحرافات البيئة والعقل . فاذا أيضاً ؟ هناك اللذة ...

.. اللذة :

مشغوليات الإنسان تسيطر على وقته ، فلا يعطيه الله ، والعواطف تسيطر على قلبه ، فلا يعطيه الله . والبيئة قد تسيطر على إرادته ، والعقل يسيطر على تفكيره . أما اللذة فإنها تسيطر على حواسه ، ثم تخدره كله ، فلا عقله يفكر ، ولا البيئة تستطيع أن تمنعه ، كما أن هذه اللذة تصبح هي كل مشغوليته ، وكل مجال عاطفته . إنها تملكه كله ...

ولا يوجد اصعب من اللذة ، تخدر الإنسان بالتمام ، ولو لوقت !
إنها تستولى على إدراكه كله ، أو تفقده إدراكه كله ، فينسى كل شيء ، ولا يدري بنفسه إلاً منقاداً وراء هذه اللذة ، التي تلفه في طياتها .

ولكل إنسان لذته الخاصة . أما الإنسان الروحي فلذته في الله وحده ...

سليمان الحكيم عاش في ملاذ العالم زمناً ، ومهما أشتته عيناه لم يمنعه عنها ... وأخيراً بعد أن أتعبته اللذة فترة طويلة ، استيقظ إلى نفسه ، وكتب سفر الجامعة وقال « الكل باطل ، وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الشمس » . والابيقور يون كانت اللذة هدفهم ، فأنكروا الله والروح والقيامة .

والمشكلة فيمن تخدره اللذة ، أنه لا يحب أن يستيقظ .
تريد أن توقظه منها ، فيهرب منك ، أو يقول لك « اتركني الآن . لم

يحن الوقت بعد » . إنه مسرور بالغفوة التي هو فيها . يقول لك : اتركني في نومي . فإن أحلام هذا النوم ، أشهى من حرمان الواقع ! إنه يريد أن يظل في هذا النوم على الرغم من ظلمته ، لأنه يحب الظلمة أكثر من النور...

أمثال هؤلاء يرون أن اليقظة الروحية يقظة مريه ، تتعبهم وتحرمهم من لذاتهم . لذلك هم يهربون باستمرار من الله ، ومن خدام الله ، ومن كنيسة ، ومن مذبجه ...

ومع ذلك فلا بد للنائم أن يستيقظ . فكيف ذلك :

هذا ما سوف نتحدث عنه في المحاضرة المقبلة إن شاء الله

[إنتهت محاضرة يوم الجمعة ١٦ / ١٠ / ١٩٧٠ التي القيت بالكاتدرائية المرقسية الكبرى بدير الأنبا رويس]

تلقينا وقاء

لابد لكل غافل أن يستيقظ ...

والكنيسة تعلمنا أن نقول في صلاة نصف الليل « انظري يا نفسى ،
لثلا تشقى بالنوم ، فتلقى خارج الملكوت » « تفهمى يا نفسى ذلك اليوم
الرهيب واستيقظى ، واضيئى مصباحك بزيت البهجة » « ربما أن الديان
حاضر ، اهتمى يا نفسى وتيقظى ، وتفهمى تلك الساعة المخوفة ... » ... إنها
دعوة من الكنيسة لليقظة ، ولكن ...

كيف يمكن للنائم روحياً أن يستيقظ ؟

وكيف استيقظ الخطاة من قبل ؟ وكيف تحول بعضهم ، ليس فقط
من خطاة إلى تائبين ، وإنما من خطاة إلى قديسين ؟ ما هى الوسائل
والدافع إلى يقظة الإنسان ، سواء كانت ذاتية أو خارجية ؟ هذا ما نود أن
نتحدث عنه الآن .

إن الله لا يترك الإنسان فى غفلته ...

لأنه يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون (١ ق
٤ : ٢) . فالإنسان الغافل عن خلاص نفسه ، لا تظنوا أن الله يغفل أيضاً
عنه ، بل على العكس يسعى إلى إيقاظه ، بأنواع وطرق شتى ، لعل فى
مقدمتها أعمال محبته .

١ - محبة الله :

أناس كثيرون استيقظوا بسبب محبة الله لهم ... فعلى الرغم من تركهم له ، ونسيانهم له ، وجدوا أن محبته تحصرهم بشدة ، وعطفه يتزايد عليهم ، ويده تفرع على أبوابهم ...

وأحس هؤلاء بالخجل من محبة الله الذي نسوه ، فرجعوا .
أحياناً يخجل الإنسان من محبة الله له ، وعنايته به ، على الرغم من كثرة خطاياهم . فتهز هذه المحبة أعماق نفسه ، فيستيقظ ضميره ... يخجل من الله الذي مازال يعطف عليه وهو في عمق سقوطه ! فيقول له « أنا يارب مكسوف منك . أنت عاملتني بطريقة أخرجتني أمام نفسي . إنني أخرج من أن أخطيء إليك مرة أخرى . نبلك يخجلني ... » .

من ضمن الذين ايقظتهم محبة الله : زكا العشار .
كان غارقاً في الظلم والقسوة . وذهب ليرى المسيح ، لا حباً ولا إيماناً ، إنما بقصد الفرجة على شخص مشهور ترجمه الجماهير . كل ما كان يريد أن يرى المسيح ولو من بعيد ، وكفى ... من أجل هذا تسلق شجرة ليرى ... وإذا به يفاجأ بأن هذا الرجل العظيم صاحب المعجزات المبهرة ، يقف عنده ، يلتفت إليه التفاتة خاصة ، من دون هذه الآلاف المحيطة به . وأكثر من هذا يناديه بإسمه . ويستضيف نفسه عنده ، قائلاً له - أمام هذه الجموع التي تحتقر العشارين - « يا زكا ، اسرع وانزل ، لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك » (لو ١٩ : ٥) .

وإذا بزكا تأسره هذه المحبة وهذا النبل ، من جانب السيد المسيح ،
الذى من أجله احتمل تذمر الناس عليه بقولهم « إنه دخل لبييت عند
رجل خاطيء » ... ! هذه اللفتة الكريمة والمحبة الخاصة ، أسرت قلبه ،
فاعترف بخطاياها التي لم يعيره بها المسيح ... وتاب عنها وقال : « ها أنا
يارب أعطى نصف أموالى للمساكين . وإن كنت قد وشيت بأحد ، أرد
أربعة أضعاف » .

ونجحت محبة الرب في إيقاظ زكا ، و« حصل خلاص لهذا
البيت » ...

ومثال ذلك أيضاً تلميذ أهمل دروسه جداً ، لدرجة اليأس الكامل من
النجاح . ثم ألقى نفسه أمام الله وبكى ، وهو في حياة خاطئة بعيدة عن
الله . ولكن الرب عامله برحمة عجيبة ، ولم يتخل عنه بسبب خطاياها
وبسبب إهماله ، ونجح بشبه معجزة . فلم يستطع أن ينسى جميل الرب
وتاب ...

أو شخص أنقذه الله من فضيحة تحطم حياته ، وستر عليه ، وهو في
عمق السقوط ، فإذا بمحبة الله تعصر قلبه ويقول : محال أن أبعد عن الله
الذى عاملنى بهذا الحب العجيب ، وسترنى ...

وكما أن البعض ايقظتهم محبة الله ، هناك من ايقظهم رفضه لهم ،
فشعروا بالضياء الذى يعيشون فيه ، واستيقظوا ...

« ٤ : ١٠ » « ثلثي رؤىها شدة » .

٢ - رفض الله :

ولعل أبرز مثل لذلك : مريم القبطية ...

كانت تعيش في فساد كامل ، وفي كل يوم تكون سبباً في إسقاط كثيرين . واستمرت على هذا الوضع سنوات طويلة ، لا تفيق لنفسها ، بل تتمادى . ثم ذهبت إلى القدس للزيارة ، لا لتنال بركة ، إنما لتمارس فسادها في الزحام ! ولما سارت نحو الأيقونة المقدسة ، شعرت أنها قد تسمرت في مكانها ، ولم تستطع أن تتقدم كالباقين . وبذلت قصارى جهدها فلم تفلح ، كانت كأنها مربوطة إلى الأرض . ولم يسمح لها الرب أن تنال البركة كغيرها ...

وإذ شعرت برفض الله لها ، تذكرت خطاياها ، وخجلت من نجاساتها ، وأفأقت من تخدير الخطية لها ، وتشفعت بالسيدة العذراء ، ونذرت أن تتوب وتحيا في طهارة . وهنا فقط شعرت بأنها تتقدم بلا مابع ... وكانت النتيجة أن حياتها تغيرت كلية ، وترهبت ، وعاشت في نسك عجيب ، منفردة في البراري في حياة السواح ، وصارت قديسة عظيمة صنع الله بها عجائب ، وتبارك منها القديس الأنبا زوسيا القس ، وكتب لنا سيرتها .

إن لطف الله إنما يقتاد إلى التوبة . ولكن إن كان البعض يستغل محبة الله استغلالاً رديئاً ، ويحيا في استهتار ولا مبالاه ، فهذا قد يوقظه ، الرفض أو التجربة أو الضربة الشديدة ، وقد يأتي الرفض من الله مباشرة كما في مثال مريم القبطية ، وقد يأتي من الكنيسة ...

٣- رفض الكنيسة :

ومن أمثلة الذين أيقظهم رفض الكنيسة : القديسة مرثا . كانت إمراة خاطئة أيضاً ، تعمل في الملاهي ، وتصادق الأمراء والأثرياء . ولما ذهبت إلى الكنيسة ، منعها الإبيدياكون من الدخول لأنها إمراة خاطئة لا تستحق دخول الكنيسة . فلما تجادلت معه ، وسمع الأب الأسقف صوت الخصومة ، خرج فاشتكت إليه ، فأفهمها إن بيت الله مقدس لا يدخله من يعيش في الخطية . فتأثرت جداً ، وقالت له « يا سيدي ، ما عدت أخطيء » . فقال لها : إن كنت صادقة في هذا ، أحضري كل غنالك إلى هنا . فذهبت وأحضرت كل ملابسها وتحفها ومظاهر ثرائها . فأمر الأسقف بحرق هذا كله . [لأنه لا يجوز أن تدخل أجرة زانية إلى الكنيسة . حسب تعليم الكتاب . (تث ٢٣ : ١٨)] .

فتخسعت مرثا جداً ، وضربها قلبها بشدة . وقالت لنفسها : إن كانوا قد فعلوا بك هكذا على الأرض ، فكم يكون جزاؤك في السماء؟! وكان هذا الرفض من الكنيسة سبباً ليقظتها فتابت وصارت من القديسات .

ومن الأمثلة المشابهة أيضاً : خاطيء كورنثوس .

طبق عليه القديس بولس الرسول مبدأ « اعزلوا الخبيث من بينكم » (١ كو ٥ : ١٣) . وقال لأهل كورنثوس « لا تحالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا » (١ كو ٥ : ١١) . بل أنه أمر أن « يسلم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد ، لكي تخلص الروح في يوم الرب » (١ كو ٥ : ٥) .

ولما عزل هذا الخاطيء ، وأحس أنه منبوذ من الجميع ، وأنه غير مستحق أن يوجد في جماعة المؤمنين ، أحس بالخرى ، واستيقظ إلى نفسه ، ووزن جداً على ما وصل إليه من خطية ، وتاب توبة حقيقية ، حتى أن القديس بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس ، أمرهم أن يمكنوا المحبة لذلك الثائب المعزول منهم ، وأن يستامحوه ويعزوه « لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط » (٢ كور : ٧ ، ٨) .

لأجل ذلك وضعت الكنيسة في عصورها الأولى قوانين لمعاقبة الخطاه ، لمنفعتهم الروحية . ونظمت ترتيب خوارس الكنيسة تبعاً لذلك . وما كانت تسمح لكل أحد بالتقدم إلى الأسرار الإلهية . وكان هذا المنع يوقظ الضمائر ، إذ يشعر فيه الخاطيء بثقل خطاياها ونتائجها المؤلمة .

وينبغي في هذه الأمثلة أو غيرها ، أن نعرف حقيقة هامة من جهة رفض الله للخطاة ، أو رفض الكنيسة ضم ، أو عزهم عن جماعة المؤمنين ، وهي :

إنه رفض مؤقت ، وللمنفعة الروحية ، وتعمل فيه النعمة لإرجاعهم .

إنه مجرد إشعار للخطيء بأنه في حالة دنسة ، لا تسمح له بالإندماج في قدسية الكنيسة . وذلك لكي يصحو إلى نفسه ويغير مسلكه ، أو كما قال الرسول « لكي تخلص الروح » ...

أيضاً من دوافع اليقظة الروحية ، الضيقات والضربات :

٤ - الضيقات والضربات :

هناك أناس لا توقظهم المحبة ، ولا التوبيح الهادىء ، وإنما يحتاجون إلى لطمة قوية توقظهم ، فيرجعون إلى الله ، كإنسان في حالة سكر ، لا يمكن أن يفيق بأن تربت على كتفه في وداعة وتدعوه أن يصحو... أو مثل فرعون الذى احتاج إلى ضربات شديدة ، فكان يفيق ويقول « أخطأت إلى الرب ... صلياً إلى الرب إلهكما ، ليرفع عنى هذا الموت » (خر ١٠ : ١٦) . « أخطأت ... الرب هو البار ، وأنا وشعبى الأشرار » (خر ٩ : ٢٧) ومشكلة فرعون إنه كان يعود فيغلبه طبعه ، ولم تكن يقظته نابعة من توبة حقيقية ...

ولعل اخوة يوسف ، مثال للذين ساعدتهم الضيقة على اليقظة . لقد تأمروا على أخيهم يوسف ، وباعوه كعبد ، وخذعوا أباهم يعقوب وادعوا أن وحشاً قد افترس يوسف . وفى كل ذلك لم يتوبوا ، ولم يفيقوا لأنفسهم . ولكنهم لما وقعوا في ضيقة شديدة عند شراء القمح ، وأتهمهم الحاكم بأنهم جواسيس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، وأمرهم بأحضار أخيهم الصغير (بنيامين) ليشتوا صدق كلامهم . حينئذ أفاقوا بسبب هذه الضيقة ، وتذكروا خطيئتهم إلى يوسف « وقالوا بعضهم لبعض : حقاً إننا مذنبون إلى أحننا ، الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة ... وأجابهم راوبين قائلاً : ألم أكلكم قائلاً لا تأثموا بالولد ، وأنتم لم تسمعوا ؟ فهوذا دمه يطلب » (تك ٤٢ : ٢١ ، ٢٢) .

كذلك لما دبر يوسف أن يوجد طاسه الفضى فى متاع بنيامين الصغير الذى ضمنوه لأبيهم الشيخ ، وقرر يوسف أن يأخذ منهم بنيامين ، قال يهوذا ليوسف « ماذا نتكلم ؟ وماذا نتبرر ؟ الله قد وجد إثم عبيدك » (تك ٤٤ : ١٦) . بالضيقة تذكروا ذنباً مرت عليه سنوات طويلة ...

كم من شخص ، كأخوة يوسف ، إذا أصابته ضيقة يستيقظ ضميره ، ويقول « هذا ذنب فلان الذى ظلمته أو ذنب فلان الذى صرفته والدمع فى عينيه ، ولم أشفق ... ؟! »

ومن أمثلة الذين أيقظتهم الضيقات ، الإبن الضال :

لم يستيقظ ضميره وهو فى حياة المتعة ، ينفق ماله بعيش مسرف ، ويلهو مع أصحابه ... ولكنه لما افتقر واعتاز ، وأشتهى الخرنوب الذى تأكله الخنازير ولم يجد ... حينئذ أمكن لهذه الضيقة أن توقفه . فىقول الكتاب إنه « رجع إلى نفسه » وقال « كم من أجير عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا هنا أهلك جوعاً ؟! أقوم وأذهب إلى أبى ... » (لوقا ١٥ : ١٧) . وهكذا قادته الضيقة إلى البقظة وإلى التوبة ، وعاد إلى أبيه .

مثال آخر أيقظته الضيقة ، هو يونان النبى . لقد هرب من وجه الرب ، ولم يطعه فى الذهاب إلى نينوى . كل هذا وضميره لم يحركه . وحتى عندما ركب سفينة إلى ترشيش ، وهاجت الأمواج على السفينة حتى كادت تنكسر ، وصرخ ركاب السفينة كل واحد إلى إلهه ... على الرغم من كل هذا لم يتحرك ضمير يونان ، بل « نزل

إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوماً ثقيلاً» (يون ١ : ٥) مما اضطّر
رئيس النوتية إلى أن يوبخه قائلاً «مالك نائماً . قم أصرخ إلى إلهك ،
عسى أن يفكر الإله فينا فلا هلك » . ولكن يونان لم يصرخ إلى إلهه .

متى استيقظ إذن وصرخ إلى إلهه ؟ حدث هذا حينما وقع في الضيقة
الكبرى ، وابتلعه الحوت ، فاكتفته المياه ، وأحاط به الغمر ، واعيت فيه
نفسه ... حينئذ « صلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت » وصرخ إلى
الرب ، ونذر ، وقال للرب الخلاص . (يون ٢) .

هناك من لا توقظه الضيقات الصغيرة ، بل ضيقة مرّة توقظه .
كما حدث لليونان النبي ، الذى لم تكن الأمواج الشديدة كافية
لايقاظه ، فاحتاج إلى حوت يبلعه لكي يفيق إلى نفسه . ولوإننا نلاحظ في
قصة يونان أن اليقظة التى سببها ابتلاع الحوت له ، لم تكن يقظة كاملة أو
دائمة . فعلى الرغم من أنه أطاع الرب بعدها وذهب إلى نينوى ، إلا أن
طبعه عاد فغلبه ، واحتاج إلى عمل إلهى آخر !

ومن أمثلة الضيقات التى توقظ الضمير أحياناً :
الأمراض والأحداث :

إن ساعة واحدة مؤلمة من مرض قاسٍ مستعصى ، قد توقظ الخاطيء
وترده إلى الله ، أكثر من ألف عظة ، وبخاصة المرض الذى يهدد بالموت ،
أو المرض الذى يطول و يبدو أن الأطباء قد عجزوا عن علاجه ...

في المرض يشعر الإنسان بضعفه ، فيلجأ إلى الله . وهنا يبدأ التفكير في أن يصطلح مع الله . فيستيقظ من غفوته ، و يعود إلى الله مصلياً ، طالباً منه العون والشفاء .

وسواء في ذلك : المرض الذي يصيب الشخص نفسه . أو المرض الذي يصيب واحداً من أحبائه ...

ولعل هذه اليقظة من الأسباب التي لأجلها سمح الله بالأمراض ...

إن الخاطئة التي ادعت على القديس مقاريوس أنه أخطأ معها ، وأنها حملت منه : هذه لما تعسرت جداً في الولادة ، واشتدت الأوجاع عليها حتى قاربت الوفاة ، عرفت أن هذه الضيقة إنما هي ضربة لها من الله ، فاستيقظت لنفسها ، واعترفت أنها ظلمت ذلك البار ، وأخبرت باسم الشاب الذي أخطأ إليها بالحقيقة .

وتوجد حوادث أخرى مماثلة قد سجلها التاريخ ...

ولعل الله قد سمح هذه الخاطئة وأمثالها بآلام الجسد ، لكي تخلص الروح في يوم الرب ، كما قال القديس بولس الرسول عن خاطيء كورنثوس (١ كوه : ٥) .

ولعل من القصص المعروفة في التاريخ : المرض المستعصي الذي أصاب الشماس أوغريس ، وفشل كل أنواع العلاج فيه . وأخيراً قالت

له القديسة ميلانيا «إني أرى يا ابني ، أن هذا المرض ليس مثل باقي الأمراض . فاخبرني ما هو سببه في حياتك» . وهنا صحا أوغريس إلى نفسه ، وصارح القديسة بمشكلته الروحية . وقاده هذا المرض ليس فقط إلى اليقظة الروحية ، وإنما وصل به أيضاً إلى الرهبة ، فصار من آباؤها ومرشديها المعروفين . وتحول من أوغريس الذي تتعبه الخطيئة ، إلى القديس مارأوغريس St.Evagrius المرشد الروحي العظيم...

وتدخل في نطاق الأمراض أيضاً الأوبئة الفتاكة ، التي تهلك بالمئات والآلاف ، فيخشى كل فرد منها على حياته ، ويشمر أن دوره في الموت ربما يأتي اليوم أو غداً... وهكذا يصحو إلى نفسه ويتوب مستعداً لأبديته . ولعل البعض يذكر وباء أنوليرا الذي أصاب مصر سنة ١٩٤٨ ... حقاً ، كان في أيامه سبب يقظة لكثيرين ...

وما نقوله عن الأمراض ، يمكن أن نقوله أيضاً عن بعض الأحداث الأخرى التي يتعرض لها الإنسان ، ويحتاج فيها إلى معونة من فوق ، كما قال الرب « ادعني في وقت الضيق ، أنقذك فتمجدني » (مز ٥٠: ١٥) .

ومن الضيقات التي توظف الإنسان الخاطيء ، نوع آخر هو :

٥ - الفشل والمذلة والشماتة :

فقد يكون الفشل في بعض الأحيان ضربة يسمح بها الله للخطيء ، لكي يصحو إلى نفسه . وفي ذلك يقول الرب في سفر التثنية ، ضمن حديثه

عن لعنات الخطية :

« لا تنجح في طرقتك ، بل لا تكون إلا مظلوماً مغصوباً كل الأيام ،
وليس مخلص ... بذاراً كثيرة تخرج إلى الحقل ، وقليلاً تجمع ، لأن الجراد
يأكله ... يكون لك زيتون في جميع نخومك ، وبزيت لا تدهن ، لأن
زيتونك ينتثر ... ولا تأمن على حياتك . في الصباح تقول ياليتته المساء ، وفي
المساء تقول ياليتته الصباح » (تث ٢٨ : ٢٩ - ٦٧) .

فإن أحس الإنسان أن فشله يرجع إلى عدم رضى الرب عليه ،
وإلى تخلي النعمة عنه ، يرجع إلى نفسه .

يحدث ذلك عندما يجد الفشل يلاحقه ... كل باب يطرقة ، يجده مغلقاً
في وجهه ! وكل مشروع يبدأ فيه ، ينتهي إلى الضياع ... فيدرك أن بركة
الرب قد خرجت من حياته ، ويفيق لكي يصطلح مع الله ، إذ قيل عن
الرجل البار إن « كل ما يعمله ينجح فيه » (مز ١) .

حقاً إن الله بأنواع وطرق شتى ، يوقظ الخاطيء من غفلته .

ولعل من أمثلة الفشل والمذلة ، ما حدث لشمشون الجبار ...

هذا القديس العظيم ، الذي حل عليه روح الرب وصنع به انتصارات
عجيبة ، لما وجد أن نعمة الله قد فارقتة ، فضاعت قوته وضاعت
هيئته ، وأذله أعداؤه ، حينئذ ندم على ما فعله واستيقظ ، واصطلح مع
الله ، فأعاد إليه قوته ...

وقد ضرب الرب لنا مثلاً آخر عن الفشل الذى هو نتيجة لتخلي
الرب ، والذى يقود إلى اليقظة الروحية ، بمثال :

فشل جيش يشوع أمام قرية عاى الصغيرة ...

وكان ذلك الفشل المحجل ، بعد الإنتصار العظيم على أسوار أريحا ...
حينئذ أحس يشوع أن هناك خطية وخيانة سببت الفشل . وبدأ يوقظ
الشعب كله ، لكى يعزل الخبيث من وسطه ، لترجع بركة الرب إليه .
وهكذا انكشف موضوع عخان بن كرمى . وبالتخلص من تلك الخطيئة ،
رجعت بركة الرب (يش ٧) .

ما أسهل أن ترن فى الآذان ، خلال مرارة الفشل ، عبارة « فى وسطك
حرام يا إسرائيل » (يش ٧ : ١٣) ، « فاعزلوا الخبيث من وسطكم »
(١ كو ٥ : ١٣) . إصحوا لأنفسكم . إستيقظوا . لا تمسوا نجساً . إرجعوا
إلئى ، فأرجع إليكم .
وهكذا تكون اليقظة الروحية علاجاً للفشل ، بالصلح مع الله .

على أن هناك - للأسف الشديد - من يقودهم الفشل إلى مزيد
من الخطأ ...

هؤلاء بدلاً من أن يقودهم الفشل إلى اليقظة فالتوبة ، تراهم فى
الفشل يتضجرون ، ويتذمرون ، ويفقدون أعصابهم ، وربما يجدفون على
الله أيضاً ، ويصفونه بالقسوة والظلم !! وأن بعض منهم قد يفرقون أنفسهم
فى ملاذ الجسد ، وفى الخمر والمخدرات . لئى ينسوا ما هم فيه من ضيق ...

والبعض قد يلجأ إلى السحر والشعوذة والأرواح ، متوهين أن سبب فشلهم هو «عمل» من الشيطان ... !

والله قد يصبر على هؤلاء جميعاً ، حتى تفشل كل طرقهم البشرية في إنقاذهم من الفشل . وبدلاً من التجديف على الله ، يدخلون معه في عتاب . وحينئذ تستيقظ قلوبهم و يرجعون إلى الله .

فإن كنت أيها الأخ تشكون من فشل يتابعك في حياتك ،
إرجع سريعاً إلى نفسك ، وفتش داخلك جيداً ، وانزع الخبيث من وسط محلتك ، واصطلع مع الله ... وهكذا تعود إليك البركة ، فتحيا وتنجح ...

إن وجدت كل الأبواب مسدودة أمامك ، فارجع إلى الله الذى يفتح ولا أحد يغلق (رؤ ٣ : ٧) .

إن الله يستخدم كل الطرق لإيقاظنا ، سواء كانت ضيقة أو ضربة ، أو مرضاً ، أو مذلة ، أو فشلاً ، لكي نصحو إلى أنفسنا ...

ولكن لماذا نتنظر ضربات الرب لكي نصحو؟! لماذا لا نصحو من الآن؟ ولا نلجىء الله إلى استخدام الشدة معنا!

إن الضيقات التى يسمع بها الله لإيقاظنا ، على نوعين :
إما ضيقة طبيعية ، أى هى نتيجة طبيعية لأخطائنا وخطايانا ...

أوهى ضيقة أرسلها الله من نعمته ، بنوع من التخلي المؤقت ...
وكلاهما للخير إن أحسنا استخدامهما ، لنستيقظ ونتوب ...

ومن الضيقات التي يسمح بها الرب أحياناً ، شماتة الأعداء ...
ونلاحظ أن الإنسان ربما يحتمل الضيقة أو الفشل ، ولكنه قد لا
يحتمل فرح أعدائه في ضيقته وشماتهم بما أصابه من فشل أو سقوط . وفي
ذلك قال أحد الشعراء :

كل المصائب قد تمر على الفتى فهون غير شماتة الأعداء

وإذا يتألم الإنسان من شماتة الأعداء ، يجد أنه تلقائياً يرجع إلى الله ،
ليصطلح معه و يقول له « ... لا تشمت بي أعدائي » (مز ٢٤) ، « الذين
يخزونوني يتهللون إن أنا سقطت » (مز ١٢) . إن شماتة الأعداء قاسية ،
ومن قسوتها أيقظت كثيرين ...

ولعل من الذين أيقظتهم شماتة العدو، القديس يعقوب
المجاهد ...

هزأ هذا القديس بالشیطان ، وأراد الشيطان أن ينتقم لنفسه بإسقاط
القديس . وهكذا دبّر له حيلة ماكرة ، إستطاع بها أن يسقط القديس
أخيراً في خطية الزنا ، ثم أسقطه في الكذب لكي يغطي على هذا الزنا ، ثم
جعلته يخلف كذباً لعله يثبت ما ذكره من كذب . وبعد هذا السقوط
الثلاثي ظهر الشيطان للقديس ، وهزأ به في سقوطه ، ومضى ضاحكاً

وهذه الشمامسة من الشيطان جعلت يعقوب يستيقظ من سقطته ، و يصحو لنفسه ، و يقدم توبة عجيبة ، حبس نفسه بها في مقبرة لمدة ١٧ سنة في بكاء ودموع ، وهو يقول لنفسه إنه لا يستحق أن يرى الحاس ولا أن يرى النور... إلى أن تحن الله عليه أخيراً ، وأظهر له بمعجزة أنه قد قبل توبته .

إن الله يعين الخاطيء على اليقظة الروحية إما بعوامل داخلية ، داخل قلبه ، أو بعوامل خارجية لعل من بينها تدخل القديسين .

٦ - تدخل القديسين :

قد يتدخل القديسون الأحياء بصلواتهم لإنقاذ نفس خاطئة ، مثلما اجتمع قديس برية شهبث ، ورفعوا صلوات من أجل القديسة بائيسة في سقطتها .

وقد يتدخل قديس الكنيسة المنتصرة في السماء ، فيشفعون في إحدى النفوس لتستيقظ كما فعلت القديسة العذراء لما تشفعت في مريم القبطية فأيقظتها ...

وقد يتدخل القديسون الأحياء تدخلًا عملياً لإيقاظ نفس وهدايتها :

أ - مثلما فعل القديس بيساريون لإنقاذ القديسة تاييس :
ذهب إليها في مكان عارها ، وحدثها عن الله والدينونة ، فتخشعت
من كلامه وارتعدت ، وهو يقول لها : « إن كانت هناك دينونة ، فكيف
تتسببين في هلاك هذا العدد الكبير من النفوس ، لأنه من أجل هذه
النفوس الكثيرة سيكون عقابك أكثر من مجرد عقابك على سقوطك » .

ولفزع تاييس من جدية كلام القديس وتأثرها به ، سقطت على
الأرض وانفجرت باكية . وأمكن أن يقودها القديس إلى التوبة .
والخروج من أماكن الإثم ، حيث قضت حياتها كقديسة .

ب - وقصتها تشبه قصة خاطئة أخرى أنقذها القديس سراييون
الكبير :

ذهب إليها القديس لكي يختطف نفسها من النار . ودخل مكان
عارها . وظل يتلو مزاميره ، وفي نهاية كل مزموور ، كان يصلي قائلاً « إرحم
يارب هذه المسكينـة وردها إلى التوبة فتخلص » . وكانت هذه الخاطئة
تسمع صلواته ، وهى واقفة إلى جواره ترتعد خوفاً وخجلاً . وأخيراً خرت
على قدميه طالبة إليه أن يخلصها . فأرشدتها إلى طريق الله ، وأخرجها من
بيت الخطية إلى بيت للعدارى حيث عاشت حياة توبة ...

ج - ومن هذا النوع أيضاً قصة القديس يوحنا القصير ، وسعيه
لخلاص نفس القديسة باثيسة :

وهذه كانت قد بدأت حياتها بداية طيبة . كانت غنية جداً ، وكرمة

جداً ، وطاهرة جداً . وكانت تنفق أموالها على الغرباء والمساكين ، وعلى الأديرة والكنائس . ومع ذلك استطاع الشيطان أن يضلها ، فانخرقت إلى الفساد وعاشت في أعماقه .

وسمع بأمرها الشيوخ القديسون في شيهيت ، وأقاموا الصلوات لأجلها . ولم يكتفوا بالصلاة وحدها ، بل أرسلوا إليها القديس يوحنا القصير لكي يختطف نفسها من الجحيم . فذهب إليها هذا القديس العظيم في مكان عارها ، وهو يرتل قول المزمور « إن سرت في وادي ظل الموت ، فلا أخاف شراً لأنك أنت معي » .

نظر إليها القديس وقال لها « لماذا استهنت بالسيد المسيح بهذا المقدار؟ ... كيف أضلّك الشيطان حتى بعت المسيح بهذا الثمن الرخيص؟! » ، وأحنى القديس رأسه إلى الأرض وبكى بكاءً مرأً . وتأثرت باثيسة من توبيخه لها ، وتأثرت من بكائه ، واستيقظ ضميرها ... وقالت للقديس « هل لي توبة؟ » . فأجابها « نعم ، ولكن ليس في هذا المكان » ... إقتنعت ، وسلمت نفسها لهذا الذي أتى من أجل خلاص نفسها ...

وخرجت الثابتة باثيسة مع القديس إلى البرية . ولما أدركهما الليل ، تركها تنام في ناحية ، وانفرد في مكان آخر يصلى . ورأى في رؤيا نوراً عظيماً يمتد بين السماء والأرض ، والملائكة صاعدين بروح باثيسة ، فذهب إلى حيث كانت فوجدها قد ماتت ... وسمع صوتاً يقول « إن توبتها قد قبلت في ساعتها التي تابت فيها ، أكثر من الذين قضوا سنين كثيرة في

التوبة ، ولكن ليست بنفس الحرارة ...
ورجع القديس يوحنا القصير إلى شهيت ، وأخبر الآباء القديسين
بتوبة بائيسة ونياحتها وقبول الله لها . وكتبت قصتها في سنكسار
(٢ مسرى) .
وهكذا كان تدخل القديسين له عمقه في إيقاظ الخطاة .

وأنت يا أخى ، لعل القديسين هم دور في يقظة نفسك ...
ربما في الأوقات التي تصحوف فيها نفسك بعد غفوة معينة ، يكون سبب
ذلك صلوات قديسين قد رفعت من أجلك ، فأرسل لك الله نعمة خاصة
توقظك .

وهكذا لا يجوز لنا أن نياس من خلاص الخطاة ، لأن قديسين
كثيرين يعملون لأجلهم و يذكرونهم أمام الله في السماء .

أما على الأرض ، فتعلمنا هذه القصص أهمية الإفتقاد ...
كم من نفس غافلة ، تحتاج إلى افتقاد منك ، من نوع زيارة القديس
يوحنا القصير لبائيسة ، بنفس الجدية والعمق ، و بنفس الروح والتأثير ...

وكما تفعل زيارة القديسين في إيقاظ الخطاة ، هكذا أيضاً تفعل
الذكريات المقدسة في زيارتها للعقل والقلب وتأثيرها عليها ...

٧- الذكريات المقدسة القديمة :

هناك خاطئة أخرى ، لها قصة شبيهة ، وقد أيقظتها الذكريات المقدسة القديمة ، التي أثارها فيها إفتقاد قديس لها ، وهي :

مريم الخاطئة التي تابت بافتقاد عمها القديس ابراهيم المتوحد لها .

كانت قد بدأت بحياة نسكية طيبة في مغارة مدى عشرين عاماً تحت رعاية عمها . ثم أغواها الشيطان ، وسقطت وهربت ، واستمرت في السقوط ، كأنها نسيت حياتها القديمة البارة ... ربما ليأسها من الرجوع إلى الله .

وبحث القديس الأنبا ابراهيم عنها . وأخيراً عرف مكانها ، وذهب إليها متنكراً . وجلس إليها ... ولما لمحت المسوح التي كان يلبسها تحت ثياب تنكره ، واشتمت منه رائحة عرق النسك ، ثارت فيها الذكريات القديمة ، وبدأت تستيقظ . بينما كان القديس يصلى من أجلها . وتذكرت مريم أيام عفاها ونسكها ، وانفجرت باكية ، وهي تقول « ويل لي ، إنني أتعس كل بني البشر » .

واستغل القديس تأثرها ، فقال لها « أيتها القديسة إبنة المسيح ، هل أنت مقتنعة ومسرورة بما أنت فيه » ... وحدثها القديس عن ذكريات نسكها القديم .

ومرت لحظات وهي جامدة أمامه من الخوف والحزى ، فأخذ القديس

يعزها و يقيمها من هوة اليأس . ثم أخذها وأخرجها من ذلك الفندق وقادها إلى حياة التوبة مرة أخرى ، ورجعت إلى مغارتها ، تبكى خطاياها ، ولكن في رجاء التوبة ... وفي ساعة إنطلاقها من العالم ، بعد سنوات في التوبة ، كان وجهها يضيء كالمصباح ...

إن الذكريات القديمة المقدسة قد هزت نفس القديسة مريم وأيقظتها ، ولم يكن عمها الأنبا ابراهيم محتاجاً إلى مجهود كبير معها لإيقاظها .

وكم من أناس توظفهم ذكر ياتهم القديمة المقدسة ...

عندما يتذكر الإنسان محبته الأولى ، وعمق حياته الروحية في ماضيه ... عندما يتذكر أيامه الحلوة مع الله ، والحرارة التي كانت له في صلواته وفي خدمته ، وعمل الله معه ... ما أسهل حينئذ أن يتحرك قلبه فيستيقظ ، ويبكى على ما هوفيه ...

ربما تقع في يده مذكرة تأملات قديمة له ... وإذ يعاود قراءتها تهتز نفسه من الداخل ، فيصحو ...

قد تصادفه صورة له مع أشخاص روحيين كانوا زملاءه في طريق الرب ، فتذكره هذه الصورة بأيام سعيدة مع الله ، يشتاق قلبه إليها فيصحو ...

وربما يزوره صديق قديم ، يحكى له ذكريات الخدمة ، أو ذكريات رحلاته معه إلى الأديرة ومواضع القديسين ، فتتأثر نفسه ويستيقظ ...

يا ليتنا كلما نفتر ، نعود فنتذكر ماضينا الحلو فنصحو ...

وليتنا أيضاً نضع أمامنا قنوات ثابتة بيننا وبين تلك الذكريات القديمة ، نعيدها إلى أذهاننا بين الحين والآخر ، لنتصص عصارتها وتسرى في عروقنا فتنعشها ...

من الأسباب التي تساعد أيضاً على اليقظة الروحية :

٨ - تأثير وسائط النعمة :

إن نعمة الله تعمل في قلب الإنسان لتوقظه ، إما بنخس مباشر للضمير ، وإما عن طريق وسائط روحية تؤثر فيه ، مثل قراءة روحية تهز نفسه هزاً ، أو عظة عميقة تستطيع أن تدخل إلى أعماقه فيستيقظ ، أو قداس روحي يسمعه فيحمل نفسه إلى أجواء أخرى غير أجواء الخطية ، أو اجتماع روحي ينقله من جو الخطيئة الذي يعيش فيه إلى جو مغاير ، فيصحو ...

وما أكثر القصص التي فيها استيقظ خطاة بوسائط النعمة ...
فهكذا استيقظ أوغسطينوس ، عندما قرأ حياة القديس العظيم الأنبا أنطونيوس ، وشعر بلذة وعمق الحياة النسكية التي عاشها ذلك القديس العجيب ... وتاب أوغسطينوس ، وتحول إلى نبع من الروحيات إرتوى منه كثيرون ...

وبيلاجية المثلة والراقصة المشهورة في أنطاكية ، كيف استيقظت ؟

لقد ذهبت إلى الكاتدرائية الكبرى في أنطاكية ، ربما للفرجة إذ كان عدد كبير من الأساقفة في زيارة لها . وتصادف أن القديس نونيوس كان يعظ من كل قلبه عن الحياة الأخرى وما فيها من بركات للأبرار ودينونة للخطاة . وكان يتكلم بالروح ، بتأثير عميق في النفوس ، بكلام بسيط ولكنه قوى نفاذ . وإذا بخوف الله يدخل في قوة إلى قلب بيلاجية ، فتصحو لنفسها ، وإذا بدموعها تنهمر على الرغم منها ... وتصر في داخلها على مقابلة القديس نونيوس بعد انصرافه من الكاتدرائية ، وتبدأ قصة توبة ، تتحول بها إلى قديسة تصنع عجائب ...

إن نفس التأثير الروحي أيقظ أيضاً أفدوكيا الخاطئة ...

عاشت في الخطيئة زماناً ، قادها فيه شيطان اليأس إلى الإستسلام وخذر ضميرها . ولكن كيف استيقظت ؟ لذلك قصة :
كانت في بعلبك . وحدث أن راهباً قديساً يدعى جرمانوس زار صديقاً له كان يقيم في بيت مجاور لهذه الخاطئة . وفي منتصف الليل كان الراهب يصلي صلوات عميقة ، وكان يقرأ فصولاً مؤثرة من الكتاب المقدس ومن الكتب الروحية ، وكان صوته مرتفعاً ربما ليطرد النوم عنه . وكانت هذه الخاطئة تتجسس بأذنيها أصوات جيرانها . فسمعت هذه الصلوات وهذه القراءات الروحية ، وتأثرت بها جداً ، وهزت مشاعرها ، فأدركها الحزن على نفسها ، واستيقظت روحها داخلها .

وفي الصباح ذهبت وقابلت القديس جرمانوس ، الذي وعظها كثيراً وتأثرت جداً بوعظه ، وبدأت معها قصة توبة ... فتعمدت ، والتحقت

ببيت للعدارى ، وارتفعت فى حياة الروح والنسك ، حتى صارت أما لهذا البيت ، وانتهى بها الأمر إلى أنها نالت إكليل الشهادة ، وتعيد لها الكنيسة فى اليوم الخامس من برمهاات (باسم أود كسيا) .

حقاً إنه خطر على الإنسان ، أن يبقى فى جو واحد فقط هو جو الخطية ...

بمحيث يؤثر عليه هذا الجو تأثيراً كاملاً ، و يسيطر عليه ، ولا يعطيه فرصة أن يتنفس هواءً جديداً ... أما وسائط النعمة ، فإنها تقدم تأثيراً جديداً يقيم توازناً داخل قلب الإنسان ، و يشعره بخطورة موقفه ، فيستيقظ لنفسه ... كما أنها تغرس فيه مشاعر من نوع آخر ، تقربه إلى الله و حياة البر ، وبخاصة إن كان الخاطيء قد أتعبه الخطية ، ولكنه بقى فيها إذ لم يجد غيرها ، أو لم يجد من يقوده خارجها ...

وهكذا تؤدى الوسائط الروحية عملها فى إيقاظ النفس الخاطئة ...

هناك سبب آخر نقدمه فى موضوع اليقظة الروحية وهو :

٩ - التآثر بموت الآخرين :

الموت يهز النفس هزاً ، و يقلب جميع التأثيرات المادية فى قلب الإنسان ، إن أمكن أن يستخدمه حسناً لخلاص نفسه .

ربما إنسان خاطيء يذهب إلى الكنيسة لمجرد تقديم العزاء لأحد أصدقائه فى موت قريب له . وإذا بالموت يحدث تأثيره ... فقد يتأثر من

منظر الميت في صندوقه بلا حراك ، أو قد يتأثر بلحن حزائني مثل آجيوس
أو آرى باميشقى ، أو يتأثر ببكاء الناس ... أو بالعظة ... ويخرج من
الكنيسة وإذا هو شخص آخر ، قد عزم على التوبة بكل قلبه ...

ولعل في قصة القديس الأنبا بولا مثلاً لتأثير الموت ...

لم يكن يشغله سوى موضوع الميراث والمال . وكان ذاهباً لكي يقاضى
قريبه الذى اغتصب جزءاً من ميراثه ... وفي الطريق رأى جنازاً ونعش
ميت ، وسمع ما يقوله المشيعون ... وترك الموت تأثيره في نفس بولا ، فزهد
العالم ، وزهد الميراث والمال ، ومضى إلى البرية ، وتحول إلى القديس
العظيم الأنبا بولا أول السواح .

ليستنا إذن نستفيد من مناظر الموت ، ومن الحديث والقراءة عنه ... إنه
يعطى يقظة للأصحاء الذين يرونه في آخرين ، و يعطى يقظة لمن ينتظرونه
لأنفسهم ...

هناك سبب آخر لليقظة الروحية وهو :

١٠ - السقطة الكبيرة غير المحتملة :

مع أن الخطية هي الخطية ، أيأ كانت درجتها ونوعيتها ، إلا أن هناك
خطايا يستطيع انضمير العادى أو الضمير الواسع أن يحتملها ، وأن يمررها
بهدوء ، ويجوز مقابلها دون أن يهتز ...
وهناك خطايا تتحول إلى عادة ، يارسها الإنسان كأنها جزء من طبعه

أو طبيعته ، ولا يشعر أنها تمثل شيئاً شاذاً في حياته يحتاج إلى أن يقف عنده ليغيره

بل هناك خطايا يفخر بها الخطاة ، ويتحدثون عنها في زهو !
في كل ذلك وأمثاله ، لا يستيقظ الضمير .
إلى أن يقع الإنسان في خطيئة بشعة ، أو خطيئة أكبر من احتمال ضميره ، أو خطيئة تسبب له فضيحة وعاراً ، أو لها نتائج سيئة مخيفة ...
وهنا فقط يستيقظ ... !

تماماً كالذى لا توظفه الضيقات البسيطة التى يفتقد بها الرب .
و ينتظر إلى أن تقع به الضيقة الكبيرة فيستيقظ .
ولكن طوبى للإنسان الذى لا ينتظر حتى يصل إلى هذا الحد الخطير ، بل له الضمير الحساس الذى يؤلمه من أول خطوات الخطية ... الضمير الحر يص المدقق الذى يقول للخطية من بدء طريقها :
« يابنت بابل الشقية ... طوبى لمن يمسك أطفالك ، و يدفنهم عند الصخرة » (مز ١٣٦) . « والصخرة كانت المسيح » (١ كو ١٠ : ٤) .
وأطفال الخطية هم براعمها الصغيرة ...

●
إن الإنسان الذى لا تأتبه اليقظة من داخله ، كثيراً ما توظفه أسباب خارجية كغالبية الأسباب التى ذكرناها .
فلا يفيق مثل هذا الإنسان إلا بسبب يأتيه من الخارج .

مثل لوط الذى لم ينتبه إلى نفسه وخرج من سادوم ، وإنما خرج
بسبب ملاكين دفعاه دفعاً إلى الخارج ليترك المدينة الهالكة .
أما أنت يا أختى ، فلا تنتظر حتى يرسل الله ملاكين يخرجانك من
سادوم ، وإنما إستيقظ أنت من ذاتك . قم من الأموات ، فيضىء لك
المسيح .

أترك هذا الكتاب الآن واجلس إلى نفسك ،
وقل لا بد أن أصطلح مع الله ... الآن ،
وارفع صلاة أن يعينك الرب ، و يعطيك قوة ترجعك إليه ...

ألقيت هذه المحاضرة بالكاتدرائية الكبرى مساء يوم الجمعة ٢٣/١٠/١٩٧٠ .

مشاعر تصاحب اليقظة الروحية

- الشعور بالخجل والحزنى .
- دموع الحزن والندم .
- حرب اليأس ، وحسد الشياطين
- حرارة روحية تصحب اليقظة .
- تعويض ما فات .
- مشاعر أخرى ...

اليقظة الروحية ، إن كانت يقظة حقيقية ، هناك علامات تدل عليها وتميزها . ولعل من أولى هذه العلامات :

١ - الشعور بالخجل والحزى :

عندما يصحو الخاطيء إلى نفسه ، يدرك بشاعة الخطية التي كان يعيش فيها ، فيشعر بخزى من خطاياہ ، وبخجل من ماضيه . وكلما تمر أمامه صور خطاياہ تزعجه وتخزيه ... كيف أنه فقد صورته الإلهية ، وفقد نقاوته ... ! كيف أنه دنس نفسه أو فكره ، أو حواسه أو جسده ... ! كيف أنه استهان بوصايا الله إلى هذا الحد ... ! كيف ... !؟

إنه يخجل أولاً من الله ذاته ...

يخجل من قدسية الله وصلاحه ... إن كانت الخطية بشعة أمام الإنسان ، فكيف تكون بشاعتها أمام الله القدوس ، غير المحدود في قداسته ... ويخجل من طول أناة الله عليه ، وكيف أن الله الحنون لم يأخذه في سقوطه ، إنما صبر عليه وهو يتعدى وصاياہ ، وأعطاه فرصة لكي يستيقظ ويتوب ...

يخجل من محبة الله التي قابلها بالجحود والإستهانة ،

وفي صلواته يقول لهذا الإله المحب « أنا يارب مكسوف منك ... خجلان ... لا أعرف كيف أرفع وجهي إليك ... وكيف أتجراً وأعود فأخاطبك ، كأن شيئاً لم يحدث ... صدقني يارب إنني خجلان من محبتك

التي تسمح الآن بأن تسمع لي ، وتقبلني مصلياً... محبتك التي ترضى بأن
تصطحب معي ، بهذه السهولة... !

هذا الخجل المقدس هو صفة لازمة لكل تائب ، يعرف تماماً أنه وضع
نجاته على كتف المسيح ليحملها عنه ، ويغزى من محبة القادى وهو يقبل
هذا...

ولعل من أمثلة الشعور بالخجل ، قصة العشار في الهيكل ...
يقول عنه السيد إنه من خجله ، لما دخل الهيكل « وقف من بعيد »
وهو « لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء » (لوقا : ١٨ : ١٣) . وإنما في مذلة
وفي شعور بالخزي ، قرع صدره قائلاً : إرحمني يارب أنا الخاطيء .

نفس الوضع يشبه مشاعر الإبن الضال في يقظته ...
لما استيقظ هذا الإبن من غفلته ، أو لما « رجع إلى نفسه » ، شعر في
خزيه أنه لم يصل إلى مستوى أجراء أبيه ، وأنه لا يستحق أن يكون له
إبناً . وكل ما يريده من أبيه هو هذه الطلبة : « إجعلني كأحد أجراءك »
(لوقا : ١٩ : ١٥) .

لما استيقظت مريم الخاطئة ، قالت لعمها الأبا ابراهيم :
« لا أستطيع يا أبى أن أنظر إلى وجهك من فرط خزيي وعاري . بل
كيف أرفع عيني إلى السماء نحو الله ، وأنا ملوثة بكل الأوحال
الذنسية !؟ » ...

حقاً إن الإنسان الذى استيقظت روحه يقول مع المزمور:
« اليوم كله خجلى أمامى ، وخزى وجهى قد غطانى »
(مز: ٤٤: ١٥)

وإذا وقف أمام الله ، لا يجد أمامه سوى عبارة « أنت عرفت عارى
وخزى يى وخجلى » (مز: ٦٩: ١٩) . إنه إنسان خجلان من الله . لا يجرؤ
أن يرفع وجهه إليه ، ولا يرى نفسه مستحقاً للدخول إلى بيت الله . بل
يقول له « أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك » (مز: ٥: ٧) . إنها رحمة
منك ، تسمح لى بها أن أدخل إلى بيتك ، وليس استحقاقاً لى ...
أنا يارب أشعر بخجل أمامك ... كيف حدث أننى ضعفت إلى ذلك
الحد؟! كيف أننى لم أقاوم ، بل استسلمت وسقطت؟! كيف لم أضعك
أمامى وقتذاك ... كيف استهنت بوصاياك ...

إذا استيقظ الخاطيء ، يشعر بخجل فى الداخل أمام نفسه .
وبخجل خارجها أمام الله ، وأمام ملائكته وقديسيه ...
دائماً الخطية تسبب الخجل والخزى ، أو انكشاف الخطية أمام
الإنسان يسبب هذا ... سواء أكانت خطيته هو ، أو خطية من ينتسبون إليه
و ينتسب إليهم ...

وهكذا نجد أن الخزى من الخطية ، يدخل فى مشاعر الأنبياء ...
فأرميا النبي - وهو يوقظ الشعب الغافل فى خطيته - نسمعه يقول « ...
نضطجع فى خزينا ، و يغطينا خجلنا ، لأننا إلى الرب إلهنا أخطأنا ، نحن

وأباؤنا ، من صبانا إلى هذا اليوم ... » (أر ٣: ٢٥) .

وعزرا الكاهن ، لما اكتشف خطايا الشعب ، مزق ثيابه حزناً ... وعند
تقدمة المساء ، قام من تذلله ، وبثيابه الممزقة جثا على ركبتيه ، وبسط
يديه إلى الرب قائلاً :

إنى أحجل وأحزى من أن أرفع يا إلهى وجهى نحوك
(عزرا ٩: ٦) .

وشرح عزرا سبب خجله وحزبه فقال « لأن ذنوبنا قد كثرت فوق
رؤوسنا ، وآثامنا تعاضمت إلى السماء ... قد جازيتنا يا إلهنا بأقل من
آثامنا » . وختم هذا الكاهن القديس صلاته بقوله « أيها الرب ... أنت
بار ، لأننا بفينا ناجين إلى هذا اليوم . ها نحن أمامك في آثامنا ، لأنه ليس
لنا أن نقف أمامك » (عز ٩: ٦ ، ١٣ ، ١٥) .

وبنفس صلاة أرميا وعزرا ، كانت أيضاً صلاة دانيال ...
قال وهو صائم في المسوح والرماد « أيها الرب الإله العظيم المهوب ...
أخطأنا وأثمنا ، وعملنا الشر ، وتمردنا وحدنا عن وصاياك ... يا سيد ، لنا
حزى الوجوه ، لملوكنا لرؤسائنا ولآبائنا ، لأننا أخطأنا إليك ... » (دا
٩: ٥ ، ٨) .

هكذا وقف الأنبياء القديسون في حزى أمام الله . فهل يليق بنا
في توبتنا أن نقف بجرأة أمام الله ، نطالب بحقوق؟!
إن الكتاب يعلمنا هذا الإنسحاق الذى نشعر فيه بالحزى والخجل ...

إن داود النبي ما أن انكشفت أمامه خطيته ، حتى شعر بالخرى وقال « لقد
أخطأت جداً في ما فعلت ... إنحمت جداً » (٢ صم ٢٤ : ١٠) .
« وضربه قلبه » ...

الخجل لا بد أن يكون ، قبل الخطية أو بعدها ...
سبارك هو الشخص الذى يشعر بالخجل من فعل خطيته ، قبل أن يقع
فيها ، ويمنعه الخجل من ارتكابها ، مثل يوسف الصديق الذى قال « كيف
أخطى ، وأفعل هذا الشر العظيم أمام الله » ... وهكذا لم يخطئ ...
فإن لم يخجل الإنسان هذا الخجل الواق ، وسقط في الخطية ،
فبالأحرى جداً ينبغي أن يشعر بالخجل لسقوطه . يخجل من ضعفه ومن
هزيمته ، ومن دنسه ، وبعده عن الله ... واستهانته بمحبة الله وطول أناته
عليه ...

وخجل الإنسان من وعوده لله في أن يحيا حياة بر ...
تلك الوعود السابقة ، الحافلة بتعهدات كثيرة ، والتي لم يكن أميناً فيها
ولا صادقاً ... ولسان حاله يقول :
كم وعدت الله وعداً حائثاً ليتنى من خوف ضعفت لم أعد

و يزداد خجله من تعهداته لله ، كلما كانت تلك التعهدات محاطة
بقديسية معينة ، كأن يكون قد تعهد أمام الله ، وهو واقف أمام المذبح ، أو
وهو واضع على الإنجيل ، أو وهو أمام رفات أحد القديسين ...

كل ذلك يجعله يذوب خجلاً أمام الله وأمام
وكما يخجل الإنسان من نفسه ومن ضعفه وعدم
يخجل كذلك من الملائكة وأرواح القديسين الذين رأوه
يخطيء ...

قد لا يخجل الخاطيء من خاطيء مثله ، يراه في خطيئته أو يشترك
معه فيها . ولكنه يخجل جداً إن عرف بهذه الخطية أحد الأبرار الأتقياء ، أو
إن رآه أو سمعه ... فكم بالأكثر يكون خجله من الملائكة الذين حوله ،
وأرواح القديسين وهمى تراه ! وكذلك كم يكون خجله من أرواح
أصدقائه وأقربائه الذين انتقلوا ...

أين يخفى وجهه من كل هؤلاء ، وبخاصة الذين كانوا يحسنون الظن
به ، والذين كانوا يثقون به وببره وبقواه ، ويمتدحونه ، و يطلبون صلواته
لأجلهم ... ثم يرون نفسه على حقيقتها في أخطائها ... !
بل هو يخجل أيضاً من أرواح أعدائه ومعارضيه ، ممن كان هو ينتقد
أعمالهم و يبدو أفضل منهم . ماذا تراهم يقولون عنه الآن ؟!

والخاطيء حين يستيقظ ويتوب ، يقول في شعوره بالخرى :
أين أخفى وجهى ، يوم تفتح الأسفار ، وتكشف الأعمال
والأفكار؟! ...

إن كان خجلى هنا على الأرض يؤلنى ، أمام عدد محدود ، فكم وكم
يكون في اليوم الأخير ، أمام الخليقة كلها ... ماذا أفعل بهذا الماضى

وسقطاته؟ إن كنت لا أحتمل التعبير على الأرض ، فكم يكون العارفى
اليوم الأخير .

ويظل هذا الخزى يتابعه و يؤلمه ، إلى أن يفيض الله عليه بعزائه ،
ويعوماضيه ... وفى اعترافه بخطئه يستريح

والخزى من خطاياها ، ليس بسبب عقوبتها ، بل بسبب بشاعتها ...
إن العقوبة تسبب خوفاً لا خجلاً . و يزول هذا الخوف حينما يدرك
الإنسان أن التوبة الصادقة تنجيه من العقوبة ... ولكنه يخزى بسبب
احتقاره لنفسه فى سقوطها . وقد يحتمل الإنسان احتقار الناس له ...

ولكن أقسى ما يؤلم ، هو أن يحتقر الإنسان ذاته ...

وهكذا يشعر بالخزى ، ليس فقط أمام الله والناس ، وليس فقط أمام
الملائكة وأرواح القديسين ، وإنما أيضاً يشعر بالخزى أمام نفسه ، وهو
وحده لا أحد معه .

إن ذلك يعصره عصراً ، ويسحقه سحقاً . وكل ذلك نافع له
روحياً ... نافع له فى اكتساب فضيلة الإنضاع والإنسحاق ، وفى عدم
الإعتماد على نفسه فى المستقبل بل يعتمد على الله وحده . ونافع له فى
الإحتراس من الخطية ومن أسبابها ...

لذلك إن لم يخجل الإنسان من خطاياها ، تخجله الكنيسة ...
وقد حدث هذا بالنسبة إلى خاطيء كورنثوس الذى حكم عليه بولس
الرسول (١ كوه) ، وعزلته الكنيسة من شركتها لكى يخجل ويحس

ببشاعة خطيته . وقد كان ... حتى كاد يبتلع من الحزن المفرط ، وحينئذ عفت عنه الكنيسة (٢ كو ٧ : ٨) .

ولعل في قول الرسول « لا تخالطوا ولا تواكلوا مثل هذا » (١ كو ٥ : ١١) ، وقوله « إزولوا الخبيث من بينك » (١ كو ٥ : ١٣) ، ما يحمل معنى روحياً ، هو أن يحس هؤلاء ببشاعة سلوكهم ، ويستيقظوا ، ويشعروا بالخنجل والخزى ... وكل هذا يقودهم إلى التوبة ، وبالتالي إلى المغفرة ، وإلى المصالحة مع الله ...

ولعل الإعراف على الكاهن ، وسيلة تساعد على الخنجل المقدس .

الإعراف له أسباب عقيدية وفوائد كثيرة . ولعل من ضمن فوائده أن يشعر المعترف بالخنجل وهو يعترف . وذلك لأن البعض - لقللة حساسيتهم الروحية - لا ينجلون أمام الله ... !
ولكنهم إذ ينجلون أمام الكاهن ، يدركون كم الخطية بشعة ، فيتوبون عنها و يتركوها ...

قلنا إن من يستيقظ يقظة روحية حقيقية ، لا بد أن يشعر بالخنجل والخنجل بسبب خطاياها السابقة . وهذا الخزى نافع له ...

غير أن البعض للأسف يهربون من الخنجل والخنزى ...
وبالتالى نقول إنهم لم يستيقظوا بعد يقظة حقيقية ...
هذا الذى يخطىء ، فيهرب من الإعراف ، ومن الكهنة والمرشدين

الروحيين . أو يهرب من المجال الروحي كله ، حتى لا يتبكت قدامه .
أو هناك من يهرب من خجل خطيئته ، بدفاع مختلق يحاول به أن يبرر
نفسه ، فيضيف إلى خطيئته خطايا جديدة بهذا الدفاع ...
أو إنسان يهرب من خزيه أمام نفسه بسبب خطيئته ، بأن يغرق نفسه
في المشغوليات أو في المتع ، حتى لا يخلو إلى نفسه فتحاسبه فيخجل ... !
يا إخوتي ، إستفيدوا من الخجل ، فهو صديق مخلص ، صادق
و صريح ، يهدف إلى خلاص أنفسكم ...

إن الشخص الذى يبعد عن الخجل أى الحياء ، لا بد أن تقوده
مشاعره إلى الإستباحة . والذى لا يدركه الخزى من خطاياها ، هو
إنسان لم تستيقظ روحه بعد ...
إن كان الشعور بالخزى هو من علامات اليقظة الروحية ، فمن
علاماتها أيضاً الدموع ، دموع الندم والحزن .

٢ - دموع الندم والحزن :

بطرس الرسول ما كان يشعر بفداحة إنكاره للمسيح ، بدليل أنه
كرر هذا الإنكار ثلاث مرات وهو فى دوامة الخوف . فلما أيقظه صياح
الديك ، وتنبه إلى نفسه ، وشعر بعمق خطيئته ، يقول الإنجيل إنه « خرج
إلى خارج ، وبكى بكاءً مرّاً » (متى ٢٦ : ٧٥) .

هذا البكاء هو تعبير القلب عما يشعر به من مرارة وندم بسبب خطيته ... وكما بكى بطرس ، بكى داود ...

كان داود في دوامة الخطية ، يتنقل فيها من مجال إلى مجال آخر ، حتى نهبه ناثان وأيقظه ... وفي يقظته تحول حزن قلبه إلى دموع متصلة فقال « في كل ليلة أعمى سرى ، ودموعى أبل فراشى » (مز ٦) .
لم يبك داود خوفاً من فقد أبعده ، فقد قال له ناثان النبى « الرب نقل عنك خطيئتكم ... لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) . ولكنه بكى ندماً وحرزاً ، لأنه دنس نفسه وأغضب الرب ...

إن الدموع عنصر ثابت في كل قصص التوبة ...

إنها تصاحب كل يقظة روحية ... يبكى بها الإنسان على أيام الضائفة ، وعلى نقاوته المفقودة ، ندماً وحرزاً ، إذ يشعر إلى أفة هوة قد انحدرو ...

يبكى بينه وبين نفسه أمام الله ، ويبكى أمام المرشد الذى أيقظ نفسه ، ويبكى أمام المذبح وصور القديسين ، ويبكى كلما تذكر ...

إن القلب الذى لم يختبر البكاء ، هو قلب قاس ...

كلما تزداد حساسية ورقة القلب ، تزداد دموع التوبة والندم ... ولكن قد تجف الدموع ، إن نسى الإنسان خطاياها أو انشغل عنها ، أو لم تعد خطيرة فى تقديره ... ولهذا نسمع فى بستان الرهبان نصيحة يكررها الآباء كثيراً ، وهى « إذهب إلى/قلايتك ، وابك على خطاياك » ...

القديس يعقوب المجاهد ، بكى بكاءً عجيبياً ، لما صححا لنفسه ...
قيل إنه صار يبكى ، والدموع تنزل من عينيه في لون الدم ، غزيرة
كالمطر ، حتى أن العشب نبت عند قدميه من الدموع ... وبق هكذا سبعة
عشر عاماً ... في مقبرة أغلق على نفسه فيها بدون عزاء ، حتى افتقده الرب
أخيراً ، وأشعره بقبول توبته ، بمعجزة أجراها على يديه ...

ودموع الحزن والندم تصحبها أمور أخرى تناسبها ...
من أمثلة ذلك لوم النفس وتبكيها في شدة ، كما حدث للقديس
موسى السائح ، الذى ظل يقول « الويل لك يا نفسى حينما فعلت كذا
وكذا ... الويل لك يا نفسى ... » . وقد يصحب ذلك سجود الخشوع
والتوبة ، أو قرع الصدر ، أو صرير الأسنان ... وما أكثر ما ورد من قصص
في كتاب الدرجى عن ممارسات منسحقة في (دير التوابين) ...

٣ - حرب اليأس وحسد الشياطين :

قد ينتهز الشيطان حالة الندم المرير الذى يملأ قلب التائب مع لومه
الشديد لنفسه ، لكى يوقعه في اليأس ، كأن خطاياہ بلا غفران ... ! وكما
قال المرتل « كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه » (مز ٣) .

وقديماً أوقع الشيطان يهوذا في اليأس فشنى نفسه ...
والمرشد الروحى الحكيم ، إذ وجد أن الكآبة قد عصفت بالخطاىء
حتى تكاد تدفعه إلى اليأس ، يبدأ بإدخال الرجاء إلى قلبه ، بالحديث عن

رحمة الله غير المحدودة وغفرانه الذى يشمل كل خطية .
ومن أمثلة ذلك قول بولس الرسول عن خاطيء كورنثوس
« ... تسامحونه بالحرى وتعزونه ، لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط .
لذلك أطلب أن تمكنوا له المحبة » (٢ كو ٧ : ٨) .

والحكمة هنا تقتضى حفظ التوازن بين أمرين :

إنسان غافل عن نفسه ، يحتاج إلى من يشعره ببشاعة الخطية حتى
يستيقظ . وإنسان آخر يشعر ببشاعة الخطية ، وكاد يبأس من خلاصه .
وهذا لا نحدثه عن الخطية ، وإنما عن مراحم الله ، حتى لا يقع في قطع
الرجاء وهلك .

على أن الشيطان كما يحاول أن يوقع التائب في اليأس من المغفرة ، يحاول أن يوقعه أيضاً في اليأس من التوبة !

إنه لا يريد أن يفلت الخاطيء من يده . فإن وجده قد استيقظ من
غفوته وبدأ يمارس أعمال التوبة ، يحسده على ذلك ، ويحاول أن يوقعه في
الكآبة الشديدة التى تقود إلى اليأس . فإن فشل في هذا ، يثير عليه حرباً
شعواء عنيفة في نفس الخطية التى تاب عنها ، حتى يرجعه إليها ، ويشعره
أن التوبة عن هذه الخطية أمر مستحيل عملياً ، ولا بد أن يسقط فيها عملياً
مهما ابتعد عنها ... !

وفي قصة القديسة مريم القبطية مثال لذلك :

فإنها بعد أن تابت ، ونذرت نفسها ، ودخلت في حياة الرهبنة

والسياحة ، حسد الشيطان توبتها ، وحارها بعنف لكى يرجعها . وهكذا
قالت للقديس زوسيا :

« لمدة سبعة عشر عاماً ، حاربت الشهوات غير المرئية التى للطبيعة
الفسادة ، مثلما أحارب وحوشاً حقيقية ... وكانت مئات الأغاني الخليعة
تعبر على ذهنى ، بل وتأتى على شفتى ، وحينئذ كنت أقرع صدرى مذكراً
نفسى بتوبتى ، و بدموع كنت أطلب معونة الله وشفاعة العذراء ... فكان
يحوطنى نور باهر وتهرب التجربة » .

« ومرات أخرى كثيرة ، كانت تهاجمنى آلاف الذكريات الحسية
والأفكار الدنسة . وكانت تجعل فى قلبى آلاماً شديدة ، بل كانت تجرى فى
عروقى كجمر مشتعل . حينئذ كنت أخرج إلى الأرض متضرعة ... إلى أن
يحوطنى النور الإلهى مثل دائرة من نار ، لا يستطيع المجرب أن يتعدها » .
« وكانت العذراء معينة لى بالحقيقة فى حياة التوبة ، فكانت طوال
هذه المدة تقودنى بيدها وتصلى لأجلى » .

٤ - حرارة روحية تصحب اليقظة :

الإنسان الذى يستيقظ روحياً ، كثيراً ما تشعل اليقظة قلبه بجراحة
ملتهبة ، تدفعه إلى قدام ... فتعطيه إضعافاً عجبياً وانسحاق قلب ، كما
تعطيه إلتصاقاً دائماً بالله فى صلوات حارة . وإذا بكل عواطفه التى كانت
متجهة إلى الخنطية ، تتحول جميعها إلى الله فى قوة ، باندفاع يدوس فى
طريقه كل شئ ، محاولاً أن يعوض السنين السابقة التى أكلها الجراد ...

إنها حرارة روحية تدخل في الصوم والصلاة والجهاد الروحي والنسك
والخدمة .

وكثيراً ما ينذر الإنسان التائب نفسه للرب .

وهذا تحول كثير من الخطاة التائبين إلى قديسين ...

وكمثال لذلك ، القديس أوغسطينوس والقديس موسى الأسود .

كما نذكر القديسة مريم القبطية التي تحولت إلى سائحة ناسكة .

والقديسة بيلاجية التي تحولت إلى متوحدة صانعة عجائب ، وغيرهما .

هذه النفوس التائبة سارت في توبتها بجدية وتدقيق ...

عرفت ضعفها ، فعاشت في حرص شديد ، وفي جهاد بلا كلل ،

وهكذا عملت فيها النعمة ، وصعدت بها في السلم الروحي بسرعة بلا

عائق ...

وكانت هذه اليقظة نقطة تحول ثابتة ، وبلا رجعة ...

٥ - تعويض ما فات :

ومن الأمثلة البارزة في هذا المجال ، زكا العشار...

كان ظالماً ونهب كثيرين ، فلما استيقظ بنداء المسيح له ، قال للرب

« ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين ، وإن كنت قد وشيت

بأحد ، أرد أربعة أضعاف » (لو ١٩ : ٨) .

وهكذا لا يتمسك النائب بشيء من مال الظلم ...
ولعل من أمثلة ذلك ، ما فعلته القديسة تاييس التائبية ...
ففي وسط المدينة ، وأمام جمهور كبير من الناس ، أحرقت كل المال
الذى كسبته عن طريق الخطية كالملابس الفاخرة والتحف والهدايا
والأمتعة ، وهى تقول « تعالوا يارفاقى ، أنظروا إننى أأحرق أمام أعينكم
كل هداياكم وتذكاراتكم وكل ما جمعته عن طريق الخطية » .
٦ - مشاعر أخرى :

إلى جوار الحزن على الخطية ، يشعر الإنسان فى اليقظة الروحية
بفرح ... فرح بأنه وجد الله وعرفه ، وفرح بأنه استطاع أن يتخلص من
الخطية ، كفرح الغريق بدخوله فى قارب نجاة ...
ويشعر بأنه قد دخل حياة جديدة ، بفكر جديد ، كما قال الرسول
« تغيروا عن شكلكم ، بتجديد أذهانكم » (رومو ١٢ : ٢) .
فينظر إلى الأمور نظرة أخرى ... وتصبح حياته الجديدة غالية عليه ، يحرص عليها ...

فصل الكتاب

بسم الأب والإبن والروح القدس

إله واحد أمين

لا مانع أن تهدي هذا
الكتاب إلى أحد أصدقائك،
فقد يكون دعوة له أن
يستيقظ، وأن يرجع إلى الله
إن كان لا يريد ، فربما
وهو يقرأ ، يعطيه الرب
هذه الرغبة ...

وإن كان يريد ، فربما
يعطيه الرب الوسيلة ...
وقد تكون هذه الكلمات
موجهة لك أنت، كما هي
موجهة إلى صديقك .

وموعدنا إن شاء الله ،
مع كتاب (السهر الروحي).
البابا شنودة الثالث

التمن ٦٠ قرشاً